ذخائر العرب

١٦

ثلاث رسائل

في إعجاز القرآن

للرُّمَّاني والخَطَّابي وعَبدالقاهِر الجرجاني

في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي

حققها وعلق عليها

محمد خلف الله أحمد

عميد معهد الدراسات العربية

دكتور محمد زغلول سلام

كلية الآداب بجامعة القاهرة
(فرع الخرطوم)

دار المعارف بمصر

ذخائر العرب ١٦ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن دار المعارف بمصر

ثلاث رسائل
في إعجاز القرآن

ذخائر العرب

١٦

ثلاث رسائل

في إعجاز القرآن

للرُّمَّاني والخَطَّابي وعبد القاهر الجرجاني

في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي

حققها وعلق عليها

محمد خلف الله

عميد معهد الدراسات العربية سابقاً

دكتور محمد زغلول سلام

أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة الإسكندرية

19904

الطبعة الثالثة

دار المعارف بمصر

ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة ، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل ، وهذا ما لا يفعله عاقل ولا يختاره ذولب . وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأحلام ، ووفارة العقول والألباب . وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون . وقد وصفهم الله تعالى فى كتابه بالجدل واللدد فقال سبحانه :﴿...ما ضربُوه لك إلاَّ جدلاً بل هُمْ قومٌ خَصِمُون﴾(١) وقال سبحانه : ﴿ وتُنْذِرَ بِه قوما لُدًّا ﴾(٢) . فكيف كان يجوز – على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة – أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه ، وأن يضربوا عنه صفحًا ، ولا يحوزوا الفلح والظفر فيه لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه . ومعلوم أن رجلا عاقلا لو عطش عطشًا شديدا خاف منه الهلاك على نفسه وبحضرته ماء معرض للشرب فلم يشربه حتى هلك عطشًا [لحكمنا (٣)] أنه عاجز عن شربه غير قادر عليه . وهذا بين واضح لا يُشكل على عاقل .

قلت : وهذا – من وجوه ما قيل فيه – أبينها دلالة وأيسرها مؤونة . وهو مقنع لمن تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه .

وذهب قوم إلى أن العلة فى إعجازه الصرفة (٤) ، أى صرف الهمم عن المعارضة ، وإن كانت مقدوراً عليها ، وغير معجزة عنها ؛ إلا أن العائق من حيث كان أمرًا خارجًا عن مجارى العادات صار كسائر المعجزات . فقالوا : ولو كان الله عز وجل بعث نبيًّا فى زمان النبوات ، وجعل معجزته فى تحريك

---

(١) سنجرى فى خلال هذا الكتاب على ذكر اسم السورة متبوعاً برقمها ثم رقم الآية (الزخرف ٤٣/٥٨) . وتمام الآية : (وقالوا ءآلهتنا خيرٌ أم هو ما ضربوه لك إلاَّ جدلاً ، بل هم قوم خصمون) .

(٢) [مريم ١٩/ ٩٧] .

(٣) أضفنا هنا كلمة (لحكمنا) ليتم الكلام .

(٤) فى « ب » : وذهب قوم إلى الإعجاز فيه الصرفة .

يده أو مدرجله فى وقت قعوده بين ظهرانى قومه ، ثم قيل له : ما آيتك ؟ فقال آيتى أن أحرِّك يدى أو أمد رجلى ، ولا يمكن أحدًا منكم أن يفعل مثل فعلى ، والقوم أصحاء الأبدان لا آفة بشىء من جوارحهم ، فحرك يده أو مد رجله ، فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه ، كان ذلك آية دالة على صدقه . وليس ينظر فى المعجزة إلى عظم حجم ما يأتى به النبى ولا إلى فخامة منظره ، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمرًا خارجًا عن مجارى العادات ناقضاً لها ، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها ، وهذا أيضًا وجه قريب ، إلاأن دلالة الآية تشهد بخلافه وهى قوله سبحانه : ﴿ قُل لَئِن اجتَمعتِ الإِنْسُ والجنُّ عَلَى أَنْ يأْتُوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يأْتُون بِمِثْلِهِ ولوْ كانَ بعضُهُمْ لبعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1] ، فأشار فى ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، وسبيله التأهب والاحتشاد . والمعنى فى الصرفة التى وصفوها لا يلائم هذه الصفة ، فدل على أن المراد غيرها ، والله أعلم .

وزعمت طائفة أن إعجازه إنماهو فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن فى مستقبل الزمان نحو قوله سبحانه : ﴿ الٓمٓ . غُلِبَتِ الرومُ فى أَدنَى الأَرْض ، وهُمْ من بعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُون ، فى بِضْعِ سِنين ﴾[2] ، وكقوله سبحانه : ﴿ قُل للمخَلَّفِينَ من الأَعْرابِ ستُدعَوْنَ إلى قوم أُولى بأْس شديدٍ ﴾[3] ، ونحوهما من الأخبار التى صدقت أقوالها مواقع أكوانها . قلت : ولا يشك فى أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه ، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود فى كل سورة من سور القرآن ، وقد جعل سبحانه فى صفة كل

---

(١) [الإسراء ١٧/٨٨] .

(٢) [الروم ٣٠/ ١ — ٣] . وفى « ب » إلى قوله تعالى « الأرض » الآية .

(٣) [الفتح ٤٨ / ١٦] .

سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتى بمثلها ، فقال : ﴿ فأْتوا بسورة من مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ الله إِنْ كُنْتُم صَادِقين ﴾ (١) من غير تعيين (٢) ، فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه .

وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة (٣) ، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر ، وفى كيفيتها يعرض لهم الإشكالُ ، ويصعب عليهم منه الانفصال ، ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا فى تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له وإحاطة العلم به ، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التى اختص بها القرآن ، الفائقة فى وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذى يتميز به عن وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذى يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة ، قالوا إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام ، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربًا من المعرفة لا يمكن تحديده ، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذى يقع منه التفاضل فتقع فى نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك ، ويتميز فى أفهامهم قبيل الفاضل من المفضول منه .

قالوا : وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر أثره فى النفس حتى لا يلتبس على ذوى العلم والمعرفة به . قالوا : وقد توجد لبعض الكلام عذوبة فى السمع وهشاشة فى النفس لا توجد مثلها لغيره منه ، والكلامان معًا فصيحان ، ثم لا يوقف لشىء من ذلك على علة .

قلت : وهذا لا يقنع فى مثل هذا العلم ، ولا يشفى من داء الجهل به ،

---

(١) [البقرة - ٢/٢٣] .
(٢) فى « ب » : عبارة « من غير تعيين » ناقصة .
(٣) لخص السيوطى هذا الرأى فى كتاب الإتقان ط حجازى سنة ١٣٦٠هـ ٢/٢٠٤ .

وإنما هو إشكال أحيل به على إبهام ، وقد تمثل بعضهم فى هذا بأبيات جرير التي نحلها ذا الرُّمة[١] : ذكرت الرواة أن جريرًا مرّ بذى الرمة وقد عمل قصيدته التى أولها :

نَبتْ عَيْنَاكَ عن طَلَلٍ بحُزْوَى عَفَتْهُ الريحُ وامتنح القِطَارَا

فقال : ألا أُنجدك بأبيات تزيد فيها ! فقال : نعم . فقال :

يعدُّ النَّاسِبُونَ بنى تَميمٍ بيوتَ المجْدِ أربَعَةً كِبَارَا

يعدُّون الرَّباب وآل تَيم وسعداً ثم حنْظَلةَ الخِيارا

ويذهب بينها الْمَرْئِى لغوًا كما أَلغيتَ فى الدِّية الحُوارا

فوضعها ذو الرمة فى قصيدته ثم مرَّ به الفرزدق فسأله عما أحدث من الشعر ، فأنشده القصيدة ، فلما بلغ هذه الأبيات قال : ليس هذا من بحرك ، مُضيفها[٢] أشدُّ لَحيين منك! قال : فاستدركها بطبعه ، وفطن لها بلطف ذهنه .

قلت : فأما من لم يرض من المعرفة بظاهر السِّمة دون البحث عن باطن العلة ، ولم يقنع فى الأمر بأوائل البرهان حتى يستشهد لها دلائل الامتحان ، فإنه يقول إن الذى يوجد لهذا الكلام من العذوبة فى حس السامع ، والهشاشة فى نفسه ، وما يتحلى به من الرونق والبهجة التى يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع فى القلوب ، والتأثير فى النفوس ، فتصطلح من أجله الألْسُن على أنه كلام لا يشبهه كلام ، وتَحْصَرُ الأقوال عن معارضته ، وتنقطع به الأطماع عنها ، أمر لا بد له من سبب ، بوجوده يجب له هذا

---

(١) راجع القصة فى الأغانى ط الساسى ١٦ / ١١٣ .

(٢) فى « ب » : مصنفها .

الحكم ، وبحصوله يستحق هذا الوصف . وقد استقرينا أوصافه الخارجة عنه ، وأسبابه النابتة منه ، فلم نجد شيئًا منها يثبت على النظر ، أو يستقيم فى القياس ، ويطرَّد على المعايير [١] ، فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوبًا من ذاته ، ومستقصًى من جهة نفسه : فدل النظر وشاهد العِبر على أن السبب له ، والعلة فيه [٢] أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها فى البلاغة متباينة [٣] غير متساوية ؛ فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ؛ ومنها الجائز الطَّلْقُ الرَّسْلُ . وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم ، الذى لا يوجد فى القرآن شىء منه ألبتة .

فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثانى أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه ؛ فحازت بلاغاتُ القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصةً ، وأخذت من كل نوع من أنواع شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادين لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة فى الكلام تعالجان نوعًا من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين فى نظمه مع نبوّ كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره [٤] ليكون آية بينة لنبيه ، ودلالة له على صحة مادعا إليه من أمر دينه .

وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور : منها أن علمهم لا يحيط

---

(١) فى « ب » : ويطرد على معانى العبر .
(٢) لخص السيوطى هذا الرأى فى الإتقان ٢ / ٢٠٤ . ولخصه صاحب مفتاح السعادة ٢ / ٣٥٩ .
(٣) فى « ب » لفظة « متباينة » غير موجودة .
(٤) فى « ب » : لسترها بلطيف قدرته عن الزلة .

بجميع أسماءِ اللغة العربية [وبألفاظها [١]] التى هى ظروف المعانى والحوامل لها ، ولا تدرك أفهامهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاءِ جميع وجوه النظوم التى بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن [٢] من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله ، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياءِ الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم . وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشد تلاؤمًا وتشاكلاً من نظمه . وأما المعانى فلا خفاءَ على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها . والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها .

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة فى نوع واحد منه فلم توجد إلا فى كلام العليم القدير ، الذى أحاط بكل شىء علمًا ، وأحصى كل شىء عددًا .

فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزًا لأنه جاءَ بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعانى ، من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته ؛ من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ [٣] وتقويم وأمر بمعروف ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها ، واضعًا كل شىءٍ منها موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه ، ولا يرى [٤] فى صورة العقل أمر أليق [٥]

---

(١) فى الأصل أوضاعها ويبدو أنها تصحيف لكلمة ألفاظها التى أثبتناها والتى تتفق مع السياق .
(٢) فى « ب » الأخس .
(٣) فى الأصل واو قبل كلمة (وعظ) ويظهر أن هذا حمل ناشر « ا » أن يقرأ العبارة : ومن ووعظ . ونحن نرجح القراءة المثبتة لتمشيها مع السياق .
(٤) فى « ب » : ولا يتوهم .
(٥) فى « ب » : أليق به منه .

منه ، مودعًا أخبار القرون الماضية وما نزل من مَثُلات الله بمن عصى وعاند منهم ، منبئًا عن الكوائن المستقبلة فى الأعصار الباقية من الزمان ، جامعًا فى ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وإنباء عن وجوب ما أمر به ، ونهى عنه .

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قُوى البشر ، ولا تبلغه قدَرهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته فى شكله . ثم صار المعاندون له ممن كفر به وأنكره يقولون مرة إنه شعر لما رأوه كلامًا منظومًا ، ومرة سحر إذ رأوه معجوزًا عنه ، غير مقدور عليه ، وقد كانوا يجدون له وقعًا فى القلوب وقرعًا فى النفوس يُريبهم ويحيرهم ، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعًا من الاعتراف . ولذلك قال قائلهم : إن له حلاوة وإن عليه طلاوة . وكانوا مرة لجهلهم وحيرتهم يقولون : ﴿ أساطير الأولين اكْتَتَبها فَهى تُمْلَى عَلَيْه بُكرةً وَأَصِيلاً ﴾[1] مع علمهم أن صاحبه أُمىٌّ وليس بحضرته من يملى أو يكتب ، فى نحو ذلك من الأمور التى جماعها الجهل والعجز ، وقد حكى الله جل وعز عن بعض مردتهم وشياطينهم — ويقال هو الوليد بن المغيرة المخزومى — أنه لما طال فكره فى أمر القرآن ، وكثر ضجره منه ، وضرب له الأخماس من رأيه فى الأسداس ، لم يقدر على أكثر من قوله : ﴿ إن هذَا إلَّا قولُ البَشَرْ ﴾[2] عنادًا للحق وجهلاً به ، وذهابًا عن الحجة وانقطاعًا دونها ، وقد وصف[3] ذلك من حاله وشدة حيرته فقال سبحانه : ﴿ إنه فكَّرَ وقدَّر ، فقُتل كيف قدَّرَ ، ثم قُتِل كيف قَدَّر . ثم نَظَر ثم عَبَس وبسَر . ثم أدبر واسْتكبَر . فقال إن هذا إلا سحرٌ يُؤْثَر . إنْ هذا إلَّا قولُ البشَر ﴾[4] .

---

(١) [الفرقان ٢٥/٥] .
(٢) [المدثر ٧٤/٢٢] .
(٣) فى « ب » زيادة [الله تعالى] .
(٤) [المدثر ٧٤/١٤ — ٢٢] .

وكيفما كانت الحال ودارت القصة ، فقد حصل باعترافهم قولاً ، وانقطاعهم عن معارضته فعلاً أنه معجز ، وفى ذلك قيام الحجة وثبوت المعجزة ، والحمد لله[١] .

ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التى تجمع[٢] لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذى إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه : إما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن فى الكلام ألفاظًا متقاربة فى المعانى[٣] يحسب أكثر الناس أنها متساوية فى إفادة بيان مراد الخطاب ؛ كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ، وكالنعت والصفة ، وكقولك : اقعد واجلس ، وبَلَى ونعم ، وذلك وذاك ، ومن وعن ، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصفات مما سنذكر تفصيله فيما بعد ، والأمر فيها وفى ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها فى بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان فى بعضها . تقول : عرفت الشىء وعلمته إذا أردت الإثبات الذى يرتفع معه الجهل ؛ إلاَّ أن قولك : عرفت . يقتضى مفعولاً واحداً كقولك : عرفت زيدا ، وعلمت يقتضى مفعولين ، كقولك : علمت زيداً عاقلاً ولذلك صارت المعرفة تستعمل خصوصاً فى توحيد الله تعالى وإثبات ذاته ، فتقول : عرفت الله ، ولا تقول علمت الله ، إلا أن تضيف إليه صفة من الصفات فتقول : علمت الله عدلاً ، وعلمته قادرًا ، ونحو ذلك من الصفات . وحقيقة

---

(١) يرد هذا الجزء ملخصاً فى الإتقان ٢/٢٠٥ ، وفى مفتاح السعادة ٢ /٣٦٠ .

(٢) فى (ب) تجتمع .

(٣) لعل النظر إلى بلاغة القرآن من هذه الوجهة هو الذى دفع بعض العلماء مثل أبى هلال العسكرى إلى العناية بالفروق اللغوية .

البيان فى هذا أَن العلم ضده الجهل ، والمعرفة ضدها النكرة . والحمد والشكر قد يشتركان أَيضًا ، والحمد لله على نعمة أَى الشكر لله عليها ، ثم قد يتميز الشكر عن الحمد فى أَشياءَ ؛ فيكون الحمد ابتداءً بمعنى الثناء ، ولا يكون الشكر إلا على الجزاء ، تقول : حمدت زيدًا[١] إذا أَثنيت عليه فى أَخلاقه ومذاهبه وإن لم يكن سبق إليك منه معروف ، وشكرت زيدًا إذا أَردت جزاءه على معروف أَسداه[٢] إليك ، ثم قد يكون الشكر قولاً كالحمد ، ويكون فعلاً كقوله جل وعز : ﴿ اعملوا آل داود شكرًا ﴾[٣] . وإذا أَردت أَن تتبين حقيقة الفرق بينهما اعتبرت كل واحد منهما بضده ، وذلك أَن ضد الحمد الذم ، وضد الشكر الكفران ، وقد يكون الحمد على المحبوب والمكروه ، ولا يكون الشكر إلا على المحبوب .

وأَما الشح والبخل فقد زعم بعضهم أَن البخل منع الحق ، وهو ظلم ، والشح ما يجده الشحيح فى نفسه من الحزازة عند أَداءِ الحق وإخراجه من يده . قال : ولذلك قيل : « الشحيح أَعذر من الظالم » . قلت : وقد وجدت هذا المعنى على العكس مما روى عن ابن مسعود : حدثنا أَحمد بن إبراهيم بن مالك قال : نا عمر بن حفص السدوسى قال : نا المسعودى عن جامع بن شداد عن أَبى الشعثاء قال : قلت لعبد الله بن مسعود ، يا أَبا عبد الرحمن إنى أَخاف أَن أَكون قد هلكت ، قال : ولم ذاك ؟ . قلت : لأَنى سمعت الله يقول : ﴿ ومَنْ يُوقَ شُحَّ نفسِه فأُولئك هُمُ المفْلِحُون ﴾[٤] ، وأَنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدى شىء . قال : ليس ذاك الشح الذى ذكره الله فى

---

(١) هكذا فى « ب » وفى « أ » والطبعة الأولى « هذا » .

(٢) هكذا فى (« ب » وفى « أ » والطبعة الأولى « ابتدأه » .

(٣) [سبأ ٣٤/ ١٣] .

(٤) [الحشر ٥٩/ ٩] .

القرآن ، ولكن الشح أن تأكل مال أخيك ظلمًا ، ولكن ذاك البخل ، وبئس الشيء البخل .

وأما النعت والصفة ، فإن الصفة أعم والنعت أخص ، وذلك أنك تقول : زيد عاقل وحليم ، وعمرو جاهل وسفيه ، وكذلك تقول : زيد أسود ودميم ، و [عمرو] [١] أبيض وجميل ، فيكون ذلك صفة ونعتًا لهما وأما النعت فلا يكاد يطلق إلا فيما لا يزول ولا يتبدل ، كالطول والقصر والسواد والبياض ونحوهما من الأمور اللازمة .

وأما قول القائل لصاحبه : اقعد واجلس ، فقد حكى لنا عن النضر بن شُميل أنه دخل على المأمون عند مقدمه مرو ، فمثل بين يديه وسلم ؛ فقال له المأمون : اجلس ، فقال : يا أمير المؤمنين ما أنا بمضطجع فأجلس ، قال : فكيف تقول ؟ قال : قل اقعد . فأمر له بجائزة .

قلت : وبيان ما قاله النضر بن شميل إنما يصح إذا اعتبرت إحدى الصفتين بالأخرى عند المقابلة ، فتقول : القيام والقعود كما تقول : الحركة والسكون ، ولا نسمعهم يقولون القيام والجلوس وإنما يقال : قعد الرجل عن قيام ، وجلس عن ضجعة واستلقاء ، ونحو ذلك .

وأما قولك : بلى ونعم ؛ فإن بلى جواب عن الاستفهام بحرف النفى كقول القائل : ألم تفعل كذا ؟ ، فيقول صاحبه : بلى ، كقوله عز وجل : ﴿ أَلستُ بربِّكُم قَالُوا بَلَى ﴾ [٢] . وأما نعم فهو جواب عن الاستفهام نحو هل [٣] كقوله سبحانه [٤] : ﴿ هل وجدتُم ما وَعَدَكُم ربّكم حقًّا قالوا نعم ﴾ [٥] .

---

(١) وردت العبارة فى الأصل بغير (عمرو) وقد زدناها ليستقيم الكلام .

(٢) [الأعراف ٧/١٧٢] .

(٣) فى الأصل : نحو فهل وقد سقطت هاتان الكلمتان من طبعة (ص) .

(٤) فى طبعة (ص) : كقوله تعالى .

(٥) [الأعراف ٥/٤٤] .

وقال الفَرّاء : بلى لا يكون إلا جوابًا عن مسألة يدخلها طرف من الجحد . وحكى عنه أنه قال : لو قالت الذرية عندما قيل لهم أَلست بربكم ، نعم ، بدل قولهم بلى لكفروا كلهم .

وأَما قولك : ذاك وذلك[1] فإن الإشارة بذلك إنما تقع إلى الشيء القريب منك ، وذاك إنما يستعمل فيما كان متراخيًا عنك .

وأَما مِن وعن فإنهما يفترقان فى مواضع[2] كقولك : أَخذت منه مالا ، وأَخذت عنه علمًا ، فإذا قلت : سمعت منه كلامًا أَردت سماعه من فيه ، وإذا قلت : سمعت عنه حديثًا كان ذلك عن بلاغ ، وهذا على ظاهر الكلام وغالبه . وقد يتعارفان[3] فى مواضع من الكلام . ومما يدخل فى هذا الباب ما حدثنى محمد بن سعدويه قال : حدثنى محمد بن عبد الله بن الجنيد قال : حدثنى محمد بن النضر بن مساور قال : حدثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال : جمعنا الحسن لعرض المصاحف أَنا وأَبا العالية الرياحى ونصر بن عاصم الليثى وعاصمًا الجحدرى ؛ فقال رجل يا أَبا العالية قول الله تعالى فى كتابه : ﴿ فويلٌ للمصَلِّين الذين هُمْ عن صَلاتِهم سَاهُون[4] ﴾ ما هذا السهو ؟ ، قال الذى لا يدرى عن كم ينصرف ؛ عن شفع أَو عن وتر ، فقال الحسن : مه يا أَبا العالية ليس هذا بل الذين سهوا عن ميقاتهم حتى تفوتهم . قال الحسن : أَلا ترى قوله عز وجل : (عن صلاتهم) ، وناه أَبو رجاء الغنوى ، نا محمد بن الجهم السجزى ، نا الهيثم بن خالد المنقرى

---

(١) كذا فى « ب » وفى « أ » والطبعة الأولى ذاك .

(٢) فى « ب » زيادة (كثيرة) .

(٣) لعلها يتقاربان وفى « ب » يتعاقبان .

(٤) [الماعون ١٠٧ / ٥] .

عن أبى عكرمة عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار نحوه . قلت : وإنما أُتِىَ أبو العالية فى هذا حيث لم يفرق بين حرف عَن وفى ، فتنبه له الحسن فقال : ألا ترى قوله : ﴿ عن صلاتهم ﴾ يؤيد أن السهو الذى هو الغلط فى العدد إنما هو[1] يعرض فى الصلاة بعد ملابستها ، فلو كان هو المراد لقيل : فى صلاتهم ساهون ، فلما قال عن صلاتهم دل على أن المراد به الذهاب عن الوقت . ونظير هذا ما قاله القُتَبِىُّ[2] فى قوله تعالى : ﴿ ومن يعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لهُ قَرِين ﴾[3] زعم أنه من قوله : عشوت إلى النار أعشو إذا نظرت إليها . فغلّطوه فى ذلك وقالوا : إنما معنى قوله : من يُعرض عن ذكر الرحمن ، ولم يفرق بين عشوت إلى الشىء وعشوت عنه — وهذا الباب عظيم الخطر ، وكثيرًا ما يعرض فيه الغلط ، وقديمًا عنى به العربى الصريح — فلم يحسن[4] ترتيبه وتنزيله .

حدثنى عبد العزيز بن محمد المسكنى قال : حدثنى إسحاق بن إبراهيم قال حدثنى سويد نا ابن المبارك عن عيسى بن عبد الرحمن قال : حدثنى طلحة اليامى قال : حدثنى عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب أن أعرابيًا جاءَ إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : علِّمنى عملا يدخلنى الجنة فقال : اعتق النسمة وفكَّ الرقبة قال : أوليسا واحدًا ؟ . قال : لا ، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها . فتأمل كيف رتب الكلامين

---

(١) سقطت (هو) فى (ص) .

(٢) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ أو سنة ٢٧٠هـ ، وقد ذكر صديق فى هامش له (ا) ٣٩ أن الوفاة كانت سنة سبع ومائتين وهو مغاير لما تذكره المصادر فى ترجمته .

(٣) [الزخرف ٤٣ / ٣٦] . (٤) يقصد القتبى .

واقتضى من كل واحد منهما أخص البيانين[١] فيما وضع له من المعنى وضمنه من المراد . وحدثنى عبد الله بن أسباط عن شيوخه قال جمع هارون الرشيد سيبويه والكسائى فألقى سيبويه على الكسائى مسألة فقال : هل يجوز قول القائل : كاد الزنبور يكون العقرب فكأنه إياها أو كأنها إياه ؟ فجوزه الكسائى على معنى كأنه هى أو كأنها هو ، وأباه سيبويه ، فأحضر الرشيد جماعة من الأعراب الفصحاء كانوا مقيمين بالباب وسألهم عنها بحضرتهما فصوبوا قول سيبويه ولم يجوزوا ما قاله الكسائى ، قيل وذلك أن حرف (إيَّا) إنما يستعمل فى موضع النصب ، وهى هنا فى موضع رفع فلم يجز . ومثل هذا كثير واستقصاؤه يطول .

قلت : ومن ها هنا تهيب كثير من السلف تفسير القرآن ، وتركوا القول فيه حذرًا أن يزلوا فيذهبوا عن المراد ، وإن كانوا علماء باللسان ، فقهاء فى الدين ؛ فكان الأصمعى — وهو إمام أهل اللغة — لا يفسر شيئًا من غريب القرآن . وحكى عنه أنه سئل عن قوله سبحانه : ﴿ قد شغفها حُبًّا ﴾[٢] فسكت وقال : هذا فى القرآن ، ثم ذكر قولاً لبعض العرب فى جارية لقوم أرادوا بيعها : أتبيعونها وهى لكم شغاف ؟ . ولم يزد على ذلك ، أو نحو هذا الكلام .

قلت : ولهذا ما حث صلى الله عليه وسلم على تعلم إعراب القرآن وطلب معانى الغريب منه . نا إسماعيل بن محمد الصفار قال : حدثنى محمد بن وهب الثقفى[٣] ، قال حدثنى محمد بن سهل العسكرى قال حدثنى ابن أبى زائدة عن عبد الله بن سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه » .

---

(١) فى « ب » (الشأنين) .
(٢) [يوسف ١٢ / ٣٠] .
(٣) سقطت الثقفى فى (ا) .

قلت : فإذا عرفت هذه الأصول تبينت أن القوم إنما كاعوا[١] وجبنوا عن معارضة القرآن لما قد كان يئودهم ويتصعدهم منه ، وقد كانوا بطباعهم يتبينون مواضع تلك الأمور ويعرفون ما يلزمهم من شروطها ومن العهدة فيها ، ويعلمون أنهم لا يبلغون شأوها ، فتركوا المعارضة لعجزهم ، وأقبلوا على المحاربة لجهلهم ، فكان حظهم مما فروا إليه حظهم مما فزعوا منه ﴿ فغُلِبوا هنالك وانقَلبوا صاغرين ﴾ والحمد لله رب العالمين .

فإن قيل : إنا إذا تلونا القرآن وتأملناه وجدنا معظم كلامه مبنيًّا ومؤلفًا من ألفاظ مبتذلة [٢] فى مخاطبات العرب مستعملة فى محاوراتهم ، وحظ الغريب المشكل منه بالإضافة إلى الكثير من واضحه قليل ، وعدد الفقر والغرر من ألفاظه بالقياس إلى مباذله ومراسيله عدد يسير ، فكيف يتوهم عليهم العجز عن معارضته والإتيان بمثله ، وهم عرب فصحاء مقتدرون على التصرف فى أودية الكلام ، عارفون بنظومه . قصيده ورجزه وسجعه ، وسائر فنونه ، فلو كانوا أرادوه وقنعوا عن شفاء الأنفس به لسهل ذلك عليهم ، وإنما عاقهم عن ذلك رأى آخر كان أقوى فى نفوسهم وأجدى عليهم فى مبلغ آرائهم وعقولهم ، وهو مناجزتهم إياه الحرب ومعاجلته بالإهلاك استراحة إلى الخلاص منه ، وكراهة لمطاولته على القول ومعارضته بالكلام الذى يقتضى الجواب ، فيتمادى بهم الزمان للنظر فيه والانتقاد له ، فتكثر الدعاوى ، ويخفى موضع الفضل بين الكلامين ، فمالوا إلى هذا الرأى قصدًا إلى اجتياحه واستئصاله ، إذ كانوا فيما يرونه مستظهرين عليه مستعلين بالقدرة فوقه .

قيل : إنا قدمنا من بيان أوصاف بلاغة القرآن وذكرنا من شرائطها ما أسقطنا به عن أنفسنا هذا السؤال . وزعمنا أنها أمور لا تجتمع لأحد من

---

(١) كاع عن الشىء هابه وجبن عنه .

(٢) فى الأصل مبذلة وصححها « ا » مبتذلة .

البشر ولا يجوز أن تأتى عليها قدرته ، وإن كان أفصح الناس وأعرفهم بطرق الكلام وأساليب فنون البيان ، وذكرنا العلة فى ذلك ، وبينا المعنى فيه ؛ ولم نقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة لإعجاز القرآن على مفرد الألفاظ التى منها يتركب الكلام دون ما يتضمنه من ودائعه التى هى معانيه ، وملابسه التى هى نظوم تأليفه .

وقد قال بعض العلماء [١] فى الأسماء اللغوية وهى نوع واحد من الأنواع الثلاثة التى شرطنا أنه لا يجوز أن يحيط بها كلها إلا نبى ؛ وقد كان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه — وهو من الفصاحة فى ذروة السنام والغارب — يقرأ قوله عز وجل : ﴿ وفاكهة وأبًّا ﴾[٢] فلا يعرفه فيراجع نفسه ويقول : ما الأبّ ؟ ثم يقول : إن هذا تكلف منك يا ابن الخطاب . وكان ابن عباس رحمه الله — وهو ترجمان القرآن ووارث علمه — يقول : لا أعرف حناذًا ولا غسلين ولا الرقيم . هل فى اللغة التفث فى شىء من كلام العرب ؟ ، وإنما أخذوه عن أهل التفسير على ما عقلوه من مراد الخطاب .

فأما المعانى التى تحملها الألفاظ فالأمر فى معاناتها أشد لأنها نتائج العقول وولائد الأفهام وبنات الأفكار .

وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ وزمام المعانى وبه تنتظم[٣] أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة فى النفس يتشكل بها البيان .

---

(١) يذكر (ا) أنه الإمام الشافعى ، وينقل قوله فى أوائل الرسالة : لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ، ولانعلم أن يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى ولكنه لايذهب منه شىء على عامتها .

(٢) (عبس ٨٠ / ٣١) .

(٣) الرسم هنا غير واضح فى الأصل ، وقد قرأه (ا) : وبه يتصل أخذ الكلام .

وإذا كان الأمر فى ذلك على ما وصفناه فقد علم أنه ليس المفردُ [١] بذَرَبِ اللسان وطلاقته كافياً لهذا الشأن ، ولا كل من أوتى حظًّا من بديهة وعارضة كان ناهضاً بحمله ومضطلعًا بعبئه ما لم يَجمعْ إليها سائر الشرائط التى ذكرناها على الوجه الذى حددناه ، وأنى لهم ذلك ومن لهم به ؟ و﴿ لئن اجتَمعت الإنسُ والجنُّ عَلى أن يأْتُوا بِمثْلِ هذا القُرآنِ لا يأْتُون بمثله ولوْ كان بعضُهم لبعضٍ ظهيرًا ﴾[٢] .

وأما ما ذكروه من قلة الغريب فى ألفاظ القرآن بالإضافة إلى الواضح منها ، فليست الغرابة مما شرطناه فى حدود البلاغة ، وإنما يكثر وحشى الغريب فى كلام الأوحاش من الناس ، والأجلاف من جفاة العرب ، الذين يذهبون مذاهب العنجهية ، ولا يعرفون تقطيع الكلام وتنزيله والتخير له ، وليس ذلك معدودًا فى النوع الأفضل من أنواعه . وإنما المختار منه النمط الأقصد الذى جاء به القرآن ، وهو الذى جمع البلاغة والفخامة إلى العذوبة والسهولة . وقد يعد من ألفاظ الغريب فى نعوت الطويل نحو من ستين لفظة أكثرها بشع شنع . كالعَشَنَّقِ[٣] ، والعَشَنَّط[٤] ، والعطنَّط ، والشوقب والشوذب والسلهب[٥] ، والقوق ، والقاق ، والطوط والطاط . فاصطلح أهل البلاغة على نبذها وترك استعمالها فى مرسل الكلام ، واستَثْقَلُوا الطويل . وهذا يدلك على أن البلاغة لا تعبأُ بالغرابة ولا تعمل بها شيئًا .

فإن قيل : إنا لا نسلم لكم ما ادعيتموه من أن العبارات الواقعة فى

---

(١) فى « ب » : التفرد .
(٢) [الإسراء ١٧ /٨٨] .
(٣) الشعنق والعشانق (كعملس وعلابط) الطويل ليس بضخم ولا مثقل .
(٤) العشنط (كعشنق) التار الظريف الحسن الجسم ، وقد وردت هذه الكلمة فى (ا) محرفة إلى عنشط فى صلب الكتاب وهامشه .
(٥) فى الأصل السهلب ولم ترد فى كتب اللغة .

القرآن إنما وقعت فى أفصح وجوه البيان وأحسنها ، لوجودنا أشياءَ منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها كقوله : ﴿ فأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ (١) وإنما يستعمل مثل هذا فى فعل السباع خصوصاً «الافتراس» ، يقال : افترسه السَّبُعُ . هذا هو المختار الفصيح فى معناه ، فأما الأكل فهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع . وكقوله : ﴿ ذلكَ كَيْلٌ يسيرٌ ﴾ (٢) قالوا : وما اليسير والعسير من الكيل والاكتيال ، وما وجه اختصاصه بهذه وأنت لا تسمع فصيحًا يقول : كِلْتُ لزيد كيلاً يسيرًا إلا أن يعنى به أنه يسير العدد والكمية . وكقوله : ﴿ وانْطلقَ الملأُ منهم أنِ امْشُوا واصبرُوا على آلهتكم ﴾ (٣) ، والمشى فى هذا ليس بأبلغ الكلام ، ولو قيل بدل ذلك أن امضوا وانطلقوا لكان أبلغ وأحسن . وكقوله : ﴿ هَلَكَ عنِّى سلطانِيهْ ﴾ (٤) وإنما يستعمل لفظ الهلاك فى الأعيان والأشخاص كقوله : هلك زيد ، وهلك مال عمرو ونحوهما ، فأما الأمور التى هى معان وليست بأعيان ولا أشخاص فلا يكادون يستعملونه فيها . ولو قال قائل : هلك عن فلان علمه أو هلك جاهه على معنى ذهب علمه وجاهه لكان مستقبحًا غير مستحسن . وكقوله سبحانه : ﴿ وإنهُ لِحُبِّ الخيرِ لشديد ﴾ (٥) وأنت لا تسمع فصيحًا يقول : أنا لحب زيد شديد ، وإنما وجه الكلام وصحته أن يقال : أنا شديد الحب لزيد ، وللمال ، ونحوه . وكقوله سبحانه : ﴿ والذينَ هُمْ للزكاةِ فاعِلُون ﴾ (٦) ولا يقول أحد من الناس : فعل زيد الزكاة ، إنما يقال : زكّى الرجل ماله ، وأدى زكاة ماله ، أو نحو ذلك من الكلام ، وكقوله سبحانه : ﴿ إنَّ الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ سيَجْعلُ لَهمُ الرحْمَنُ وُدًّا ﴾ (٧) ، ومن الذى يقول :

---

(١) [يوسف ١٢/١٧] .
(٢) [يوسف ١٢/٦٥] .
(٣) [ص ٣٨/٦] .
(٤) [الحاقة ٦٩/٢٩] .
(٥) [العاديات ١٠٠/٨] .
(٦) [المؤمنون ٢٣/٤] .
(٧) [مريم ١٩/٩٦] .

جعلت لفلان ودًّا وحبًّا بمعنى أحببته ؟ ، وإنما يقول وددته وأحببته ، أو بذلت له ودى ؛ أو نحو ذلك من القول . وكقوله سبحانه : ﴿ قُلْ عَسى أَن يكونَ رَدفَ لكُمْ بعضُ الذى تَستَعْجلونَ ﴾[١] ، وإنما هو ردفه يردفه من غير إدغام اللام . وكقوله سبحانه : ﴿ ومن يُرِد فيه بإلحادٍ بظُلم ﴾[٢] . وكقوله سبحانه : ﴿ أَوَلم يروْا أَنَّ الله الذى خلقَ السماواتِ والأَرضَ ولم يَعْىَ بخَلقِهِنَّ بقادِرٍ ﴾[٣] فأدخل الباءَ فى قوله بإلحاد وفى قوله بقادر ، وهى لاموضع لها ها هنا[٤] . ولو قيل : ومن يرد فيه إلحاداً بظلم ، وقيل : قادر على أن يحيى الموتى ، كان كلامًا صحيحًا لا يشكل معناه ولا يشتبه . ولو جاز إدخال الباء فى قوله : بقادر لجاز أن يقال : ظننتُ أن زيدًا بخارج ، وهذا غير جائز البتة .

قالوا : ومما يعرض فيه من سوء التأْليف ومن نسق الكلام على ما ينبو عنه ولا يليق به قوله سبحانه : ﴿ كما أَخرجَك ربُّك من بيْتِك بالحقِّ وإنَّ فريقًا من المؤمنين لكارهُون ﴾[٥] عقيب قوله : ﴿ أُولئك هُمُ المؤمِنُون حقًّا . لهم درجاتٌ عِنْد ربِّهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريم ﴾[٦] وكما (فى) تشبيه شىء بشىء ولم يتقدم من[٧] أول الكلام ما يشبه به ما تأخر منه . وكقوله سبحانه : ﴿ وقلْ إنى أنا النذيرُ المبينُ كما أَنزَلْنَا عَلَى المقْتَسِمِينَ الذين جَعَلوا القرآن عِضِين ﴾[٨] ، وقوله تعالى : ﴿ كما أَرسَلْنَا فِيكُمْ رسُولاً مِنْكُمْ[٩] .. ﴾ الآية .

قالوا : وقد يوجد فى القرآن الحذف الكثير والاختصار الذى يشكل معه وجه الكلام ومعناه كقوله سبحانه : ﴿ وَلو أَنَّ قرآنًا سُيِّرتْ به الجبالُ أَو

---

(١) [النمل ٢٧/٧٢] .
(٢) [الحج ٢٢/٢٥] .
(٣) [الأحقاف ٤٦/٣٣] .
(٤) نقلها (ص) هنا .
(٥) [الأنفال ٨/٥] .
(٦) [(الأنفال ٨/٤] .
(٧) نقلها (ص) فى .
(٨) [الحجر ١٥/٨٩ - ٩١] .
(٩) [البقرة ٢/١٥١] .

قُطِّعَتْ به الأَرضُ أو كُلِّمَ به الموتَى ﴾[١] الآية ثم لم يذكر جوابه ، وفى ذلك تبتير [٢] الكلام وإبطال فائدته . وكقوله سبحانه : ﴿ حَتَّى إذا جاءُوها وفُتِحَتْ أَبوابُها ﴾[٣] الآية ونظائرها . . ثم قد يوجد فيه على العكس منه التكرار المضاعف كقوله سبحانه فى سورة الرحمٰن : ﴿ فبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ﴾ وفى سورة المرسلات : ﴿ ويلٌ يومئذ للمُكذِّبين ﴾ ، وليس واحد من المذهبين بالمحمود عند أهل اللسان ، ولا بالمعدود فى النوع الأفضل من طَبقات البيان . وقد يدخل بين الكلامين ما ليس من جنسهما ولا قبيلهما كقوله سبحانه : ﴿ لاتُحرِكْ بهِ لسانَكَ لتَعجَلَ به إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَه وقُرآنَه فإذا قَرَأْناه فاتَّبِعْ قُرآنه ثُمَّ إنَّ عَلَينا بَيانه ﴾[٤] عقيب قوله ﴿ بَل الإنسانُ على نَفْسِهِ بَصيرة ، وَلو أَلْقَى مَعَاذِيرَه ﴾ بين يدى قوله : ﴿ كلاَّ بلْ تُحِبُّونَ العاجِلَة وتَذَرُونَ الآخِرة ﴾ وليس[٥] ذلك بالمستحسن ولا بالمختار عند أهل البلاغة وأرباب البيان ، والأَحسن أَن يكون الكلام مفصلاً مقسوماً على أَبوابه ، وأَن يكون لكل نوع منه حيز وقبيل لايدخل فى قبيل غيره .

قالوا : ولو كانت سور القرآن على هذا الترتيب فتكون أَخبار الأُمم وأَقاصيصهم فى سورة ، والمواعظ والأَمثال فى سورة ، والاحكام فى أُخرى لكان ذلك أَحسن فى الترتيب ، وأَعون على الحفظ ، وأَدل على المراد ؛ فى أَمور غير هذه يكثر تعدادها .

والجواب : أَن القول فى وجود أَلفاظ القرآن وبلاغتها على النعت الذى ،

---

(١) [الرعد ٣١/١٣] .

(٢) هكذا فى « ب » وفى « ا » والطبعة الأولى تبيين ، والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٣) [الزمر ٧٣/٣٩] .

(٤) [القيامة ١٩/٧٥] .

(٥) هكذا فى « ب » وفى الأصل ولا .

وصفناه صحيح لا ينكره إلا جاهل أو معاند ، وليس الأمر فى معانى هذه الآى على ما تأولوه ولا المراد فى أكثرها على ما ظنوه وتوهموه .

فأما قوله تعالى : ﴿ فأَكَلَهُ الذئْبُ ﴾ فإن الافتراس معناه فى فعل السبع القتل فحسب ، وأصل الفَرْس دق العنق ، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلاً ولا عظمًا ، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ، والفرس لا يعطى تمام هذا المعنى ، فلم يصلح على هذا أن يُعَبَّر عنه إلا بالأكل ؛ على أن لفظ الأكل شائع[1] الاستعمال فى الذئب وغيره من السباع . وحكى ابن السِّكيّت فى ألفاظ العرب قولهم : أكل الذئب الشاة فما ترك منها تامورا[2] ، وقال بعض شعرائهم[3] :

فتًى ليْسَ لابْنِ العَمِّ كالذئبِ إن رأى ... بِصَاحِبه يومًا دمًا فَهوَ آكِلُهُ

وقال آخر[4] :

أبا خُرَاشَةَ أمَّـــا أنتَ ذا نَفَـــر ... فإنَّ قَومِىَ لم تـــأْكُلْهُم الضَّبُعُ

وفى حديث عتبة بن أبى لهب أنه لما دعا عليه السلام فقال : اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك ، فخرج فى تَجْر إلى الشام ، فنزل فى بعض المنازل ،

---

(١) فى « ب » سائغ .

(٢) التامور : الوعاء والنفس وحياتها ، والقلب وحبته وحياته ودمه ، أو الدم . . . إلخ .

(٣) ينسب البيت للفرزدق ، وفى بعض المراجع لزينب بنت الطثرية . راجع : اللسان ١٣ / ٢٠٤ التنبيه ٣٦ ، الأغانى ٧ / ١٢٣ ، حماسه البحترى ٣٩٦ ، ويروى للفرزدق بيت قريب فى نفس المعنى (راجع الحيوان ٦ / ٢٩٨ ، المعانى الكبير ١ / ٢٨٥ . ويقول الجاحظ : (الحيوان ط ، هارون ٧ / ٦٣) : « الذئب لا يطمع فيه صاحبه فإذا دمى وثب عليه صاحبه فأكله » .

(٤) والبيت للعباس بن مرداس ، وأبو خراشة هو خفاف بن ندبة ، ورواية الحيوان : (أما كنت) ط هارون ٥ / ٢٤ ، وراجع شرح المفصل ط ليبزج ٢ / ١١٨٤ والشعر والشعراء ط شاكر ١ / ٣٠٠ .

جاء الأسد وأطاف بهم فجعل عتبة يقول : أكلنى السبع ، فلما كان فى بعض الليل علا[١] عليه ففدغ رأسه . وقد يتوسع فى ذلك حتى يجعل العقر أكلاً وكذلك اللدغ واللسع . أخبرنا أبو عمر قال : أخبرنا أبو العباس عن ابن الأعرابى عن أبى المكارم قال : مررت بمنهال وعلى شفيره صنبور بيده شوشب فقلت لأمه : أدركى القامة لا تأكُلُه الهامة .قال أبو العباس : الشوشب ، العقرب والقامة الصبى الصغير . وحكى أيضاً عن بعض الأعراب أكلونى البراغيث ؛ فجعل قرص البرغوث أكلاً . ومثل هذا فى الكلام كثير[٢] .

وأما قوله سبحانه : ﴿ ونزدَادُ كيْلَ بَعيرٍ ، ذَلِك كيْلٌ يسيرٌ ﴾[٣] فإن معنى الكيل المقرون بذكر البعير المكيل ،والمصادر توضع موضع الأسماء كقولهم : هذا درهم ضرب الأمير وهذا ثوبٌ نسج اليمن ، أى مضروب الأمير ونسيج اليمن ، والمعنى أنا نزداد من الميرة المكيلة إذا صحبَنا أخونا حمل بعير[٤] ؛ فإنه كان لكل رأس منهم حمل واحد لا يزيده على ذلك لعزة الطعام ، فكان ذلك فى السنين السبع القحطة ، وكانوا لا يجدون الطعام إلا عنده ولا يتيسر لهم مرامه إلا من قبله فقيل على هذا المعنى : ﴿ ذلك كيلٌ يَسيرٌ ﴾ أى متيسر لنا إذا تسببنا إلى ذلك باستصحاب أخينا ، واليسير شائع الاستعمال فيما يسهل من الأمور كالعسير فيما يتعذر منها ، ولذلك قيل يُسِّرَ الرجل إذا نُتِجَت مواشيه وكثر أولادها . قال الشاعر :

يَعُدُّ الفتى من نفسه كُلَّ ليلة أصاب غناها مِن صديق مُيَسر[٥]

---

(١) فى « ا » عدا .

(٢) فى « ا » : ومثل هذا الكلام كثير . والأصل ما أثبتناه .

(٣) (يوسف ١٢ / ٦٥) .

(٤) فى الأصل : حمل به بعير ، والظاهر أن (به) زائدة ، وقد حذفت فى (ا) .

(٥) يسر الرجل تيسيراً إذا سهلت ولادة أبله وغنمه ، والغنم لبنها أو نسلها .

وقال آخر[١] :

هما سَيِّدانا يزعمـــان وإنـــا يسوداننا أَنْ يَسَّرتْ غنمـــاهُما

وقد قيل فى ذلك : كيل يسير أى سريع لا حبس فيه ، وذلك أن القوم كانوا يُحبسون على الباب ، وكان يوسف يقدمهم على غيرهم ؛ وقد قيل إن معنى الكيل هنا السعر . أخبرنى أبو عمر عن أبى العباس قال : والكيْل بمعنى السعر ، كيف الكيل عندكم ؟ أى : كيف السعر ؟ وقد أنشدنا عمرو ابن أبى عمرو الشيبانى عن أبيه[٢] :

فإن تَكُ فى كيل اليمامـــة عسـرةٌ فما كيلُ مَيَّافَارِقين[٣] بأَعسَرَا

وأما قوله سبحانه : ﴿ أَنِ امْشُوا واصْبرُوا على آلهتكم ﴾[٤] وقول من زعم أنه لو قيل بدله : امضوا وانطلقوا كان أبلغ ، فليس الأمر على ما زعمه ، بل المشى فى هذا المحل أولى وأشبه بالمعنى ، وذلك لأنه إنما قصد به الاستمرار على العادة الجارية ولزوم السجية المعهودة فى غير انزعاج منهم ولا انتقال عن الأمر الأول ، وذلك أشبه بالثبات والصبر المأمور به فى قوله : ﴿ واصْبِرُوا على آلهتكم ﴾ والمعنى كأنهم قالوا : امشوا على هينتكم وإلى مهوى[٥] أموركم ، ولا تعرجوا على قوله ، ولا تبالوا به . وفى قوله : امضوا وانطلقوا زيادة انزعاج ليس فى قوله امشوا ، والقوم لم يقصدوا ذلك ولم يريدوه ، وقيل : بل المشى هاهنا معناه التوفر فى العدد والاجتماع للنصرة دون المشى الذى هو نقل

---

(١) هو أبو أسيدة الدبيرى كما فى اللسان ط بولاق ٧ / ١٥٩ ، وينشد قبله بيتاً آخر :

إن لنا شيخين لا ينفعاننا غنيين لا يجدى علينا غناهما

(٢) البيت يرويه ياقوت فى معجم البلدان ٨ / ٢١٤ وينسبه إلى بعض الشعراء .

(٣) ميافارقين مدينة بديار بكر . (٤) (ص ٣٨ / ٦) .

(٥) فى « ب » : والزموا .

الأَقدام ، من قول العرب : مشى الرجل إذا كثر ولده . وأَنشدو :

والشاةُ لا تمشى على الهَمَلَّعِ

أى لا يكثر نتاجها ، والهَمَلَّعُ الذئب .

وأَما قوله سبحانه : ﴿ هَلَكَ عَنِّى سُلْطانِيَهْ ﴾ وزعمهم أَن الهلاك لا يستعمل إلا فى تلف الأَعيان فإنهم ما زادوا على أَن عابوا أَفصح الكلام وأَبلغه ، وقد تكون الاستعارة فى بعض المواضع أَبلغ من الحقيقة كقوله عز وجل ﴿ وآيةٌ لهم الليلُ نَسْلَخُ منه النهار ﴾[1] والسلخ هاهنا مستعار وهو أَبلغ منه لو قال نخرج منه النهار وإن كان هو الحقيقة وكذلك قوله سبحانه : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ هو أَبلغ من قوله : فاعمل بما تؤمر وإن كان هو الحقيقة ، والصدع مستعار ، وإنما يكون ذلك فى الزجاج ونحوه من فِلِزِّ الأَرض ، ومعناه المبالغة فيما أُمر به حتى يؤثر فى النفوس والقلوب . تأْثير الصدع فى الزجاج ونحوه ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ هَلك عَنِّى سُلْطانيه ﴾ وذلك أَن الذهاب قد يكون على مراصدة العود ، وليس مع الهلاك بقيا ولا رجعى ، وقد قيل إن معنى السلطان هاهنا الحجة والبرهان .

وأَما قوله سبحانه : ﴿ وإنه لِحُبِّ الخَيْرِ لَشديد ﴾ وأَن الشديد معناه هاهنا البخيل ، ويقال : رجل شديد ومتشدد أَى بخيل . قال طرفة[2]

أَرى الموتَ يعتَامُ النفوسَ ويَصطفِى عَقِيلة مَـالِ الفاحِشِ المتَشَدِّدِ

واللام فى قوله : ﴿ لحب الخير ﴾ بمعنى لأَجل حب الخير وهو المال لبخيل .

وأَما قوله عز وجل : ﴿ والذين هُمْ للزكاة فاعلون ﴾ وقولهم إن المستعمل فى الزكاة المعروف لها من الأَلفاظ ، كالأَداء والإيتاء والإعطاء ، ونحوها كقولك :

---

(١) [يس ٣٦ / ٣٧] .

(٢) من المعلقة راجع ديوان طرفة ص ٣١ ، والعقد الثمين ٥٨ وروايته : يعتام الكرام .

أدى فلان زكاة ماله وآتاها وأعطاها ، أو زكّى ماله ، ولا يقال : فعل فلان الزكاة ، ولا يعرف ذلك فى كلام أحد . فالجواب أن هذه العبارات لا تستوى فى مراد هذه الآية ، وإنما تفيد حصول الأسم فقط ، ولا تزيد على أكثر من الإخبار عن أدائها فحسب ، ومعنى الكلام ومراده المبالغة فى أدائها والمواظبة عليه حتى يكون ذلك صفة لازمة لهم ، فيصير أداءُ الزكاة فعلا لهم مضافًا إليهم يُعرفون به ، فهم له فاعلون . وهذا المعنى لا يستفاد على الكمال إلا بهذه العبارة ، فهى إذًا أولى العبارات وأبلغها فى هذا المعنى . وقد قيل إن معنى الزكاة هنا العمل الصالح الزاكى ، يريد — والله أعلم — والذين هم للأعمال الصالحة والأفعال الزاكية فاعلون .

وأما قوله عز وجل : ﴿ سَيجعلُ لهم الرحْمَنُ وُدًّا ﴾ وإنكارهم قول من يقول جعلت لفلان ودّا بمعنى وددته فإنهم قد غلطوا فى تأويل هذا الكلام ، وذهبوا عن المراد فيه ، وإنما المعنى أن الله سيجعل لهم فى قلوب المؤمنين ، أى يخلق لهم فى صدور المؤمنين مودة ، ويغرس لهم فيها محبة ، كقوله عز وجل : ﴿ واللهُ جَعَل لكُم منْ أَنفُسِكُمْ أَزوَاجًا ﴾[1] أى خلق .

وأما قوله سبحانه : ﴿ رَدِفَ لكم ﴾ فإنهم لغتان فصيحتان : ردفته وردفت له كما تقول : نصحته ونصحت له[2] . وأما قوله سبحانه : ﴿ ومن يُردْ فيه بإلحادٍ بظُلم ﴾[3] ودخول الباء فيه فإن هذا الحرف كثيرًا ما يوجد فى كلام العرب الأول الذى نزل القرآن به ، وإن كان يعز وجوده فى كلام المتأخرين . وأخبرنى الحسن بن عبد الرحيم عن أبى خليفة عن محمد ابن سَلام الجمحى قال : قال أبو عمرو بن العلاء : اللسان الذى نزل به

---

(١) [النحل ١٦ / ٧٢] .
(٢) فى « ب » زيادة (لاينكره عالم باللغة) .
(٣) [الحج ٢٢ / ٢٥] .

القرآن وتكلمت به العرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم عربية أخرى عن[١] كلامنا هذا . وقد زعم بعضهم أن كلام العرب كان باقيًا على نجره الأول وعلى سنخ طبعه الأقدم إلى زمان بنى أمية ثم دخله الخلل فاختل[٢] منه أشياء ، ولذلك قال أبو عمرو حين أنشد قول امرىء القيس[٣] :

نطعنهم سُلْكَى ومخلـوجَـةً كرَّكَ لأُمَيْنِ على نابِلِ

ذهب من يحسن هذا الكلام . وأخبرنى أبو عمر عن أبى الحسن العباس عمن ذكره أن أبا عمرو أنشد قول الحارث بن حلزة[٤] :

زَعَمُوا أن كلَّ من ضرب العَيْـ ـرَ مُوالٍ لنا وأنَّا الولاءُ

فقال : ذهب من يحسن هذا الكلام . قلت : ولهذا صار العلماء لا يحتجون بشعر المحدثين ، ولا يستشهدون به كبشار بن برد ، والحسن بن هانئ ، ودعبل والعَتَّابى ، وأحزابهم من فصحاء الشعراء والمتقدمين فى صنعة الشعر ونجره . وإنما يرجعون فى الاستشهاد إلى شعراء الجاهلية وإلى المخضرمين منهم ، وإلى الطبقة الثالثة التى أدركت المخضرمين ، وذلك لعلمهم بما دخل الكلام فى الزمان المتأخر من الخلل والاستحالة عن رسمه الأول . فمن لم يقف على هذه الأسباب ثم قاس ما جمعه من تلاد الكلام الأول ، واعتبره بما وجد عليه كلام الأنشاء[٥] المتأخرين عَىَّ بشىء كثير من الكلام وأنكره ، وأما من تبحر فى كلام العرب ، وعرف أساليبه الواسعة ، ووقف على مذاهبه القديمة فإنه

---

(١) فى « ب » : غير .
(٢) فى « ب » : وأحيل .
(٣) ويروى فى اللسان ١٢ / ٣٢٨ : كر كلامين ، قال : وصفه بسرعة الطعن وشبهه ، بمن يدفع الريشة إلى النبال ، وشعراء النصرانية ١/١٨ : لغتك لأمين على النابل ، وقد أثبته (١) : كسرك الأمين على نابل وهو خطأ .
(٤) البيت من معلقته .
(٥) هذه اللفظة (الأنشاء) غير واضحة ، وقد وردت العبارة فى (١) « كلام الإنشا من المتأخرين » .

إذا ورد عليه منها ما يخالف المعهود من لغة أهل زمانه لم يسرع إلى النكير فيه والتلحين . أخبرنا أبو عمر عن أبي العباس قال : قال ابن الخطاب : أنحى الناس من لم يُلَحِّن أحدًا . وسمعت ابن أبي هريرة يحكى عن أبي العباس بن سريج قال : سأل رجل بعض العلماء عن قول الله عز وجل : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهذا البلد ﴾ (١) فأخبر أنه لا يقسم ثم أقسم به فى قوله : ﴿ والتين والزيتُونِ وطُورِ سِينِينَ وهَذا البَلَدِ الأَمِين لقد خلَقْنَا ﴾ (٢) فقال له ابن سريج : أى الأمرين أحب إليك ؛أجيبك ثم أقطعك ، أو أقطعك ثم أجيبك ؟ قال : لا بل اقطعنى ثم أجبنى . فقال له : أعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحضرة رجال وبين ظهرانى قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزًا ، وعليه مطعنًا فلو كان هذا عندهم (٣) مناقضة لتعلقوا به وأسرعوا بالرد عليه ، ولكن القوم علموا وجهلت ، فلم ينكروا منه ما أنكرت ، ثم قال له : إن العرب قد تدخل لا فى أثناء كلامها وتلغى معناها ، كقول الشاعر :

فى بئر لا حُور (٤) سرى وما شَعَرْ

يريد فى بئر حور سرى وما شعر . وأخبرنى أبو عمر عن أبي العباس عن ابن الأعرابى قال : العرب تذكر لا وتلغيه وتضمر لا وتستعمله ، وأنشد فى الأول قوله :

فى بئر لا حور سرى وما شعر

---

(١) [البلد ٩٠/١] .
(٢) [التين ٩٥/١ – ٤] .
(٣) سقطت لفظة (عندهم) فى ص .
(٤) حار إلى الشيء وعن الشيء رجع حوراً وحؤوراً ،وقول العجاج فى بئر لاحور سرى وما شعر ، أراد فى بئر لا حؤور فأسكن الواو الأولى وحذفها لسكونها وسكون الثانية بعدها . ولا هنا صلة فى رأى الأزهرى وعند الفراء أنها قائمة صحيحة والمعنى فى بئر ماء لا يحير عليه شيئاً) . راجع اللسان ٥ / ٢٩٦ مادة (حور) .

وفى الاخر قول الشاعر :

أُوصِيكَ أَنْ تَحْمَدَكَ الأَقَارِبُ أَو يَرجع المسكين وهو خائبُ

يريد أوصيك ألا يرجع المسكين خائبًا .

قلت : فهذا وما أشبهه زيادات حروف فى مواضع من الكلام وحذف حروف فى أماكن أخر منها ، إنما جاءت على نهج لغتهم الأولى قبل أن يدخلها التغيير ، ثم صار المتأخرون إلى ترك استعمالها فى كلامهم . فافهم هذا الباب ، فإنك إذا أحكمت معرفته استفدت علمًا كثيرًا وسقطت عنك مئونة عظيمة وزال عنك ريب القلب ، وتخلصت من شغب الخصم ، ولا قوة إلا بالله .

ونعود إلى الجواب عن قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فيهِ بِإلحاد بِظُلْمٍ ﴾ فنقول : قد قيل إن الباءَ زائدة .

والمعنى : ومن يرد فيه إلحادًا بظلم ، والباءَ قد تزاد فى مواضع من الكلام ولا يتغير به المعنى .

كقولك : أَخذت الشيءَ وأَخذت به ، وكقول الشاعر [1] :

نضْرِبُ بالسيفِ ونرجُو بالفَرج

وكقول الآخر [2] :

هُنَّ الحرائرُ لا ربــاتُ أَحمــرةٍ سودُ المحاجر لا يقْرأْنَ بالسُّوَرِ

يقال : قرأْت البقرة ، وقرأْت بالبقرة . وقد قرأَ غير واحد من القراءَ : ﴿ تُنْبِتُ بالدُّهْنِ ﴾ بضم التاءِ منهم ابن كثير وأَبو عمرو ، وزعم بعضهم أَن

---

(١) من شواهد المغنى ، راجع شرح الشواهد للسيوطى ١١٤ ، وشطره الأول : نحن بنى ضبة أصحاب الفلج .

(٢) هو الراعى النميرى (عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل) ، من شواهد المغنى ، راجع الشرح ١١٦ . ويروى للقتال الكلبى أيضاً .

معناه تنبت الدهنَ بعضهم تنبت وفيهادهن كما يقال : جاء زيد بالسيف أى جاء ومعه السيف ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ أَوَلم يروا أن الله الذى خَلَق السَّمَاوَاتِ والأَرضَ ولم يَعْىَ بخَلْقهنَّ بقادر . . . ﴾ [١] المعنى قادر على أن يحيي الموتى ، قالوا : وإنما تدخل الباءُ فى هذا المعنى مع حرف الجحد كقوله : ﴿ أليسَ ذلكَ بقادِرٍ على أن يحيي الموتى ﴾ [٢] وقد ضارَع ألم فى معنى الجحد أليس ، فأُلحق بحكمه ، قالوا : ودخول أنْ إنما هو توكيد للكلام وأنشد الفراء فى مثل هذا الباءِ[٣] :

فما رجعت بخائبةٍ ركابٌ حكيمُ بنُ المسيب منتهاها

قال : فأدخل الباءَ[٤] ، قال : وتقول : ما أظنك بقائم[٥] ، فإذا حذفت الباءَ نصبت الذى كانت فيه بما تُعمل فيه من الفعل .

وأما قوله سبحانه : ﴿ كما أخرجَك ربُّك من بيتِكَ بالحقِّ . . ﴾ الآية ففيه وجوه ذهب إليها أهل التفسير والتأويل ، كلها محتملة ، أيها اعتمدت وعَلَّقْتَ عليه الكاف حملها وصح الكلام عليه . وقال بعضهم أن الله سبحانه أمر رسوله أن يمضى لأمره فى الغنائم على كره من أصحابه كما مضى لأمره فى خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون ، وذلك أنهم فى يوم بدر اختلفوا فى الأنفال ، وحاجوا النبى صلى الله عليه وسلم وجادلوه ، فكره كثير منهم ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النفل ، فأنزل الله تعالى الآية ، وأنفذ أمره فيها ، وأمرهم أن يتقوا الله ، وأن يطيعوه ، ولا يعترضوا عليه فيما يفعله من شىء فيما بعد إن كانوا مؤمنين ، ووصف المؤمنين ثم قال :

---

(١) [الأحقاف ٤٦/٣٣] . (٢) [القيامة ٧٥/٤٠] .
(٣) راجع شرح شواهد المغنى ١١٧ .
(٤) فى « ب » : قال : فأدخل الباء فى فعل لو ألغيت منه نصب بالفعل لا بالباء .
(٥) فى « ب » : ما أظنك بقائم ، وما أظن أنك قائم .

﴿ كما أَخرجَك ربُّك من بيتِك بالحَقِّ وإنَّ فريقًا من المؤمنين لكارِهُون ﴾ ، يريد أن كراهتهم لما فعلته فى الغنائم ككراهتهم فى الخروج معك وقد حمدوا عاقبته فليصبروا[1] فى هذا وليسلِّموا ويحمدوا عاقبته كذلك . وقيل معناه : أُولئكَ هُم المؤمِنُونَ حقًّا كما أَخرجَكَ ربُّكَ مِنْ بيتِكَ بالحَقِّ كقوله : ﴿ فَوربِّ السماءِ والأَرْضِ إنه لحقٌّ مِثلَ ما أَنكم تَنْطِقُون ﴾[2] . وقيل « كما »[3] صفة لفعل مضمر وأَن تأويله : افعل فى الغنائم كما فعلت فى الخروج إلى بدر وإن كره القوم ذلك ، كقوله سبحانه : ﴿ كما أَرسلنَا فِيكُمْ رسُولاً مِنكُم ﴾ معناه : « كما أَنعمنا عليكم بإرسال رسول فيكم من أَنفسكم كذلك أَتم نعمتى عليكم » .

وأَما قوله سبحانه : ﴿ كما أَنزلْنَا على المقْتَسِمِينَ ﴾[4] فإن فيه محذوفًا يدل ظاهر الكلام عليه ؛ كأَنه قال : أَنا النذير المبين عقوبة أَو عذابًا ، كما أَنزلنا ، أَى مثل ما أَنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عِضين . فإن قيل : أَو ليس وإن توجه الكلام وصح على الوجه الذى ذكرتموه فى معنى قوله سبحانه : (كما أَخرجَكَ ربُّكَ من بيتِكَ بالحقِّ) فقد دخله من الانتشار بتفرق أَجزائه وتباعد ما بين فصوله ما أَخرجه من حسن[5] النظم الذى وصفتموه به ؟ قيل : لا ، وذلك لأَنه لم يدخل بينه وبين أَول ما يتصل به إنما قال : ﴿ وأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إن كنتم مؤمنين ﴾ ثم وصف هذا الإيمان وحقيقته إذ كان هذا القسم يقع على أَمر ذى شعب وأَجزاء ، يلزم أَدناه من ذلك ما يلزم أَقصاه ، فلو لم يستوفه بالصفة الجامعة له[6] لم يبن معه المراد ، ثم عطف

---

(١) سقطت من (ا) العبارة : « فليصبروا فى هذا وليسلموا ويحمدوا عاقبته » .

(٢) [الذاريات ٥١ / ٢٣] .

(٣) فى الأصل « ما كان » وصححناها كتصحيح (ا) « كما » ، فى « ب » (الكاف)

(٤) (الحجر ١٥ / ٩٠) . (٥) فى « ب » من جنس . (٦) فى (ا) معه .

بالكلام على أول الفصل فقال :﴿ كما أخرجَكَ ربُّكَ من بيتكَ بالحقِّ و إنَّ فريقًا من المؤمنين لكارهُون ﴾ . فشبه كراهتهم ما جرى فى أمر الأنفال وقسمها بالكراهة فى مخرجه من بيته ، وكل مالا يتم الكلام إلا به من صفة وصلة فهو كنفس الكلام . فإن قيل : فما معنى قوله : ﴿ لا تُحرِّكْ به لِسَانَكَ لتَعْجَلَ به ﴾ الآية ؟ . وقد اكتنفه من جانبيه قوله سبحانه : ﴿ بل الإنسان على نفسِه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ وقوله : ﴿ كلاَّ بَلْ تحبون العاجلَة وتذرونَ الآخِرةَ ﴾ . ولا مناسبة بين الكلامين اللذين اعتوراه . قيل هذا عارض من حال دعت الحاجةُ إلى ذكره ، لم يجز تركه ولا تأخيره عن وقته ، كقولك للرجل وأنت تحدثه بحديث فيشتغل عنك ويقبل على شىء آخر — أقبل علىّ واسمع ما أقول ، وافهم عنى ، ونحو هذا من الكلام ، ثم تصل حديثك ولا تكون بذلك خارجًا عن الكلام الأول قاطعًا له ، إنما تكون به مستوصلاً للكلام مستعيدًا له . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب وكان إذا نزل الوحى وسمع القرآن حرك لسانه يستذكر به ، فقيل له : تفهمْ ما يوحى إليك ولا تتقلبه[1] بلسانك ، فإنا نجمعه لك ونحفظه عليك . أخبرنا الأصم قال نا أبو أمية الطرسوسى قال : حدثنى عبيد الله بن موسى قال[2] : حدثنى إسرائيل عن أبى إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله سبحانه : ﴿ لا تُحرِّكْ بهِ لِسَانك لتَعْجَلَ بهِ ﴾ قال : كان يُحركُ بِه لِسَانَهُ مخَافَةَ أن يتفلت منه .

وأما ما عابوه من الحذف والاختصار فى قوله سبحانه : ﴿ ولو أنَّ قرآنًا سُيِّرت به الجبالُ أو قُطِّعَتْ به الأَرْضُ أو كُلِّمَ به الموتى ﴾ فإن الإيجاز فى

---

(١) فى « ب » تتقلبه .

(٢) فى « ب » : اخبرنا الأصم قال حدثنى أبو أمية الطرسوسى قال حدثنى إسرائيل . . .

موضعه . وحذف ما يستغنى عنه من الكلام نوع من أنواع البلاغة ، وإنما جاز حذف الجواب فى ذلك وحسن لأن المذكور منه يدل على المحذوف والمسكوت عنه من جوابه ، لأن المعقول من الخطاب عند أهل الفهم كالمنطوق به ، والمعنى : لو أن قرآنًا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن . وقد قيل : إن الحذف فى مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فى الحذف كل مذهب ، ولو ذكر الجوابُ لكان مقصورًا على الوجه الذى تناوله الذكر . فحذف الجواب كقوله : لو رأيت عليًّا بين الصفين ! وهذا أبلغ من الذكر لما وصفنا . وكذلك قوله سبحانه : ﴿ وسيقَ الذينَ اتقوا رَبَّهُم إلى الجنة زُمَرًا حتى إذا جاءُوها وفتحت أبوابها . . ﴾ الآية والمعنى كأنه قيل : لما دخلوها حصلوا على النعيم المقيم الذى لا انقطاع له ولا تكدير[1] فيه .

وأما ما عابوه من التكرار ؛ فإن تكرر الكلام على ضربين : أحدهما مذموم وهو ما كان مستغنى عنه ، غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول ، لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغوًا . وليس فى القرآن شىء من هذا النوع .

والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة ، فإن ترك التكرار فى الموضع الذى يقتضيه ، وتدعو الحاجة إليه فيه ، بإزاء تكلف الزيادة فى وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار ، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله فى الأمور المهمة التى قد تعظم العناية بها ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها . وقد يقول الرجل لصاحبه فى الحث والتحريض على العمل : عَجل

---

(١) فى « ب » (تصريد) والتصريد فى اللسان سقى دون الرى ، أو شرب دون الرى .

عجل ، وارم ارم . كما يكتب فى الأمور المهمّة على ظهور الكتب : مُهم مهم مهم ، ونحوها من الأمور . وكقول الشاعر[١] :

هَـلَّا سأَلْتَ جُمـوعَ كِنْـ ـدَةَ يـومَ وَلَّوا أَيْن أَيْنَـا

وقول الآخر[٢] :

يال بكرٍ أَنشِروا لى كُلَيْبًا يال بكرٍ أَيْـنَ أَيْـنَ الفـرارُ

وقد أَخبر الله عز وجل بالسبب الذى من أَجله كرر الأَقاصيص والأَخبار فى القرآن فقال سبحانه : ﴿ وَلقد وَصلنا لَهُم القولَ لعلَّهم يتذكرون ﴾[٣] وَقال تعالى : ﴿ وَصرَّفنَا فِيه من الوعيد لعلهم يتقون أَو يُحدثُ لهم ذِكرًا ﴾[٤] وأَما سورة الرحمن فإن الله سبحانه خاطب بها الثقلين من الإِنس والجن ، وعدد عليهم أَنواع نعمه التى خلقها لهم ؛ فكلما ذكر فصلاً من فصول النعم جدد إقرارهم به واقتضاءهم الشكر عليه ، وهى أَنواع مختلفة وفنون شتى ، وكذلك هو فى سورة « المرسلات » ذكر أَحوال يوم القيامة وأَهوالها فقدم الوعيد فيها وجدد القول عند ذكر كل حال من أَحوالها لتكون أَبلغ فى القرآن وأَوكد لإِقامة الحجة والإِعذار ؛ ومواقع البلاغة معتبرة لمواضعها من الحاجة . فإن قيل : إذا كان المعنى فى تكرير قوله : ﴿ فبأَى آلاءِ ربكما تكذبان ﴾ تجديد ذكر النعم فى هذه السورة واقتضاء الشكر عليها ، فما معنى قوله : ﴿ يرسَلُ علَيكُما شواظٌ من نارٍ ونحاسٌ فلا تنتصران ﴾[٥] ثم أَتبعه قوله : ﴿ فبأَىِّ آلاءِ ربكما تكذِّبانِ ﴾ وأَى موضع نعمة هاهنا ؟ وهو إنما يتوعدهم

---

(١) ينسب إلى عبيد بن الأبرص ، راجع ديوان عبيد ص ٢٨ ط أوربا والصناعتين ط البجاوى وأبو الفضل سنة ١٩٥٢ م ص ١٩٤ .

(٢) هو مهلهل ربيعة راجع الأغانى ط دار الكتب ٥/٥٩ .

(٣) [القصص ٢٨/٥١] . (٤) [طه ٢٠/١٣] . (٥) [الرحمن ٥٥/٣٥]

بلهب السعير والدخان المستطير .. قيل إن نعمة الله تعالى فيما أنذر به وحذر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها بإزاء نعمه على ما وعد وبشّر من ثوابه على طاعته ليرغبوا [١] فيها ويحرصوا عليها . وإنما تُحقّق معرفةُ الشيء بأن يُعْتبر بضِدّه ليوقف على حده .

والوعد والوعيد وإن تقابلا فى ذواتهما فإنهما متوازيان فى موضع النعم بالتوقيف على مآل أمرهما والإبانة على عواقب مصيرهما ، وعلى هذا ما قاله بعض حكماء الشعراء :

والحادثاتُ وإنْ أَصَابَكَ بُؤْسُها فهُو الَّذِى أَنْباكَ كيف نَعيمُها

وأما قولهم : لو كان نزول القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم ، فيكون لكل نوع من أنواع علومه حَيِّز وقبيل ، لكان أحسن نظمًا وأكثر فائدة ونفعًا فالجواب : أنه إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياءَ مختلفة المعانى فى السورة الواحدة وفى الآية المجموعة القليلة العدد لتكون أكثر لفائدته وأعم لنفعه . ولوكان لكل باب منه قبيل ، ولكل معنى سورةمفردة لم تكثر عائدته ، ولكان الواحد من الكفار [٢] والمعاندين المنكرين له إذا سمع السورة منه لا تقوم عليه [٣] الحجة به إلا فى النوع الواحد الذى تضمنته السورة الواحدة فقط ، فكان اجتماع المعانى الكثيرة فى السورة الواحدة أوفر حظًّا وأجدى نفعًا من التمييز والتفريد للمعنى الذى ذكرناه . والله أعلم .

وقد أحب الله عز وجل أن يمتحن عباده ويبلو طاعتهم واجتهادهم فى جمع المتفرق منه ، وفى تنزيله وترتيبه ، وليرفع الله الذين آمنوا منهم والذين أُوتوا العلم درجات .

---

(١) فى (ا) فيرغبوا وهو خطأ . (٢) فى « ب » : المتكبرين .

(٣) فى الأصل علينا وقد صححنا « عليه » وكذلك صححه (ا) .

فإن قيل ما أنكرتم أن القوم قد عارضوه ولكنه [١] لم ينقل إلينا وغيّب عنا ذكره ، وكتم الخبر فيه لما اتسع الإسلام وخافوا على أنفسهم ، فانقطع رسمه وامحى أثره .قيل :هذا سؤال ساقط. ،والأمر فيه خارج عما جرت به عادات الناس ، خواصهم وعوامهم من نقل الأخبار ،والتحدث بالأمور التى لها شأن ، وبالنفوس تعلق ، ولها فيها وقع . وكيف يجوز ذلك عليهم فى مثل هذا الأمر العظيم الذى قد انزعجت له القلوب وسار ذكره بين الخافقين ! ولو جاز ذلك فى مثل هذا الشأن مع عظيم خطره وجلالة قدره لجاز أن يكون قد خرج فى ذلك العصر نبي آخر ، وأنبياء ذوو عدد ، وتنزلت عليهم كتب من السماء ، وجاءوا بشرائع مخالفة لهذه الشريعة ، وكتم الخير فيها فلم يظهر . وهذا ما لا يتوهم أن يكون لخروجه من سوم الطباع ومجارى العادات ، فكذلك ما سألونا عنه .

فإن قيل :ما أنكرتم أن المعارضة قد حصلت منهم لبعضه ، وهو ما بلغ مقداره عدد الآى من بعض السور القصار ، نحو ما حكى عن مسيلمة من قوله : «يا ضفدع نقى كم تنقين ، لا الماء تكدرين ولا الوارد تنفرين» وكما حكى عن بعضهم من قوله : « ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، بين شراسيف وحشى » ن وكما قال آخر منهم : « الفيل ، وما الفيل ، وما أدراك ما الفيل . له مشفر طويل ، وذنب أثيل ، وما ذاك من خلْق ربنا بقليل » .

قيل : أما قول مسيلمة فى الضفدع فمعلوم أنه كلام خال من كل فائدة ،

---

(١) علق (ا) على هذه العبارة بهامش جاء فيه : (كذا بالأصل ، وفى العبارة حذف ، تقديره : حاصل ، أو واقع ، ولكنه لم ينقل إلينا . . . إلخ) ، وعبارة الأصل مستقيمة لا تحتاج إلى مثل هذا التقدير ولفظة « ما » فيها نافية وليست موصولة .

لا لفظه صحيح ، ولا معناه مستقيم ، ولا فيه شيء من الشرائط الثلاث التى هى أركان البلاغة ، وإنما تكلف هذا الكلام الغث لأجل مافيه من السجع . والساجع عادته أن يجعل المعانى تابعة لسجعه ، ولا يبالى بما يتكلم به إذا استوت أساجيعه واطردت .

ولخلو هذا الكلام من كل نوع من الفوائد قال أبو بكر رضى الله عنه حين طرقت[1] سمعه : أشهد أن هذا الكلام لم يخرج من بال . وأخبرنى ابن الفارسى محمد بن القاسم بن الحكم قال : أخبرنى أبى قال أخبرنى إبراهيم بن هانئ قال : أخبرنى يحيى بن بكير قال : أخبرنى الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال عن سعيد بن نشيط. قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص إلى البحرين ، فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرو ثَمَّ . قال عمرو : فأقبلت حتى مررت على مسيلمة فأعطانى الأمان ثم قال : إن محمدًا أُرسل فى جسيم الأُمور وأرسلت فى المحقرات . فقلت : أعرض على ما تقول . فقال : « ياضفدع نقّى فإنك نعم ما تنقين . لا واردًا تنفرين ، ولا ماءً تكدرين ، يا وَبْرُ يا وَبْرُ ،[2] يدان وصدر ، وسائرك حضر[3] نفر » . ثم أتى أناس يختصمون إليه فى نخل قطعها[4] بعضُهم لبعض فتسَجَّى بقطيفة ثم كشف رأسه فقال : « والليل الأدهم ، والذئب الأسحم ، ما جاءَ بنو أبى مسلم من مَحْرَمْ » ثم تسجَّى الثانية فقال : « والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما حرمته رطبًا إلا كحرمته يابس ، قوموا فلا أرى عليكم فيما صنعتم شيئًا » . قال : قال عمرو :أما والله إنك تعلم وإنا

---

(١) فى (ا) : طرق . (٢) الوبر دويبة كالسنور.

(٣) ذكر (ا) أن ابن كثير أورد هذه القصة وفيها : وسيرك حفر ونقر ، وفى (ب) : وساترك حقر نقر . (٤) فى الأصل : أقطعها .

لنعلم أنك من الكاذبين . فتوعدنى .

قلت : صدق عمرو . هل يخالج أحدًا شك فى ضلالة من هذا سبيله ، وسقوط من هذا برهانه ودليله ؟ ! . وأى بلاغة فى هذا الكلام ؟ ، وأى معنى تحته ، وأى حكمة فيه حتى يتوهم أن فيه معارضة للقرآن ، أو مباراة له على وجه من الوجوه ؟ . ولكن البائس أعلم بنفسه حين يقول : أُرسلت فى المحقرات ، ولا يراد [١] أحقر مما جاء به وأقل . ولعل بعض ما جاء به أبو الينبعى [٢] ، وأبو العَبْر ، والطرمىّ وأضرابهم من السخافات أشف منه وأخف على السمع . وما أشبه الأمر فى هذا بما حكى لنا عن أبى عمرو بن العلاء : حدثنى محمد ابن الحسين بن عاصم قال : حدثنى محمد بن الصباح المازنى قال : حدثنى عبد الله بن الهيثم حدثنا الأصمعى قال : أنشد رجل أبا عمرو بن العلاء شعرًا رديئًا فقال : هذا شبه شعر فلان :

حدارجا حدارجا سبعين فرخا دارجا

قال : وأنشد رجل آخر شعرًا رديئًا فهًّا [٣] فقال : هذا يشبه شعر بشار [٤] :

حبابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت

لها سبع دجاجات وديك حسن الصوت

وأما قول الآخر : الفيل وما الفيل وما أدراك ما الفيل ، وقول صاحب [٥] ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى . . . فإن كل واحد من هذين الكلامين مع قصور آيه [٦] ، وقصر معانيه خال من أوصاف المعارضات وشروطها ، وإنما

---

(١) فى (ب) : ولايرى . (٢) وهو رجل هازل خليع .
(٣) فى الأصل فيها وقد قرأها (ا) تفيها وصوبناها فها ومعناها عيياً .
(٤) البيتان فى الأغانى ط دار الكتب ٣/١٦٣ ورواية البيت الأول : ربابة ربة البيت .
(٥) قرأها (ا) « صاحبة» والأصل أصح .
(٦) الأصل واضح كما أثبتناه ولكن (ا) قرأها « رأيه » .

هو استراق واقتطاع من عرض كلام القرآن واحتذاء لبعض أمثلة نظومه ، وكلا لن يبلغوا شأوه أو يصيبوا فى شىء من ذلك حذوه

وسبيل من عارض صاحبه فى خطبة أو شعر أن ينشىء له كلامًا جديدًا ويحدث له معنى بديعًا ،فيجاريه فى لفظه ويباريه فى معناه ليوازن بين الكلامين فيحكم بالفلج لمن أبر[1] منهما على صاحبه ، وليس بأن يتحيف من أطراف كلام خصمه فينسف منه ثم يبدل كلمة مكان كلمة فيصل بعضه ببعض وصل ترقيع وتلفيق ، ثم يزعم أنه قد واقفه موقف المعارضين وإنما المعارضة على أحد وجوه :

منها أن يتبارى الرجلان فى شعر أو خطبة أو محاورة فيأتى كل واحد منهما بأمر محدث من وصف ماتنازعاه ، وبيان ماتباريا فيه يوازى بذلك صاحبه أو يزيد عليه ، فيفصل الحكم عند ذلك بينهما بما يوجبه النظر من التساوى والتفاضل ، نحو ما تنازعه امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة من وصف الفرس فى قصيدتيهما المشهورتين ، فافتتح امرؤ القيس قصيدته بقوله[2] :

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِى على أَمِّ جُنْدُبِ

فلما صَارَ إلى ذكر الفرس وسرعة ركضه قال :

فللزجر أُلهوبٌ وللسَّاقِ دِرَّةٌ وللسَّوطِ منه وقْعُ أَهوجَ مُنْعِبِ [3]

---

(١) فى (ب) : أربى .

(٢) راجع القصة والأبيات فى شرح ديوان أمرئ القيس لأبى بكر عاصم بن أيوب ط هندية سنة ١٣٢٤ هـ ص ٧٢ والموشح للمرزبانى ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ وبروايات مختلفة .

(٣) هكذا فى الأصل ويروى وقع أخرج مهذب وكذا فى (ا) : والأخرج الظليم وهو ذكر النعام ، ومهذب مسرع فى عدوه . وفى الديوان البيت :

فللساق ألهوب وللسوط درة وللزجر منه وقع أهوج منعب

والأهوج الأحمق ، والهوجاء السريعة ، والمنعب الذى يستعين بنعقه .

وابتدأ علقمة قصيدته بقوله [١] :

ذهبْتِ مِنَ الهجْرانِ فى غيرِ مَذْهَبِ

فلما صار إلى ذكر الفرس وركضه قال :

فعَفَّى على آثارهِنَّ بحاصِبٍ وغيبةِ شؤبوبٍ من السَّد ملهبِ
فأَدْرَكهُنَّ ثانيًا من عنانه يمرُّ كمرِّ الرائح المتَحَلِّبِ [٢]

وكانا قد حكَّما بينهما امرأة امرئ القيس ، فقالت لزوجها : علقمةُ أشعر منك ، فقال : وكيف ذلك ؟ قالت :لأَنه وصف الفرس بأَنه أدرك [٣] الطريدة من غير أن يجهده أو يكده ، وأنت مريت فرسك بالزجر وشدة التحريك والضرب ، فغضب عند ذلك وطلقها .

ونحو هذا معارضة الحارث بن التوأم اليشكرى إياه فى إجازة أبيات : أخبرنى محمد بن الحسين بن عاصم قال أخبرنى محمد بن الصباح المازنى قال: أخبرنى عبيد الله بن محمد الحنفى قال أخبرنى محمد بن سلام عن أبى عبيدة عن أبى عمرو بن العلاء قال : كان امرؤ القيس ينازع كل من قيل إنه يقول شعرًا ، فنازع الحارث بن التوءم ، فقال امرؤ القيس [٤] :

أَحارِ ترى بُرَيْقًا هَبَّ وهنًا

---

(١) القصيدة فى ديوان علقمة ضمن مجموعة دواوين خمسة ص ١٣٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ١٣٤ ورواية الشطر : يمر كمر رائح متحلب .

(٣) العبارة غير واضحة فى الأصل وتصحيحها من « ب » وهى فى المصدر واضحة (راجع مثلا الموشح ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠) . فقالت لامرئ القيس : هو أشعر منك، رأيتك ضربت فرسك بسوطك وحركته بساقك ورأيته أدرك الصيد ثانياً من عنانه .

(٤) راجع شرح ديوان امرئ القيس ص ١٦٦ وما بعدها والعقد الثمين ١٣٢ ، شعراء النصرانية ١ / ١٠ — ١١ والعمدة ١ / ١٣٥ ط سنة ١٩٢٥ هـ ، واسم الشاعر فى العمدة الحارث ابن قتادة وكنيته التوءم اليشكرى .

ومذهبه من فلان فى طريقته التى يذهبها فى شعره ، وذلك بأن تتأمل نمط كلامه فى نوع ما يعنى به ويصفه ، وتنظرُ فيما يقع تحته من النعوت والأوصاف ، فإذا وجدت أحدهما أشد تقصيًا لها ، وأحسن تخلصًا إلى دقائق معانيها ، وأكثر إصابة فيها حكمت لقوله بالسبق ، وقضيت له بالتبريز على صاحبه ، ولم تبال باختلاف مقاصدهم وتباين الطرق بهم فيها .

قلت : وإذا أنت وقفت على شروط المعارضات ورسومها ، وتبينت مذاهبها ووجوهها علمت أن القوم لم يصنعوا فى معارضة القرآن شيئًا ، ولم يأتوا من أحكامها بشىء بتة . والأمر فى ذلك بيِّن واضح لايخفى على ذى مُسكة ذكى والحمد لله .

فيقال الآن لصاحب الفيل : يا فائل الرأى [1] ، أين ما شرطناه من حدود البلاغة فيما جئت به من الكلام ، وأين ما وصفناه من رسوم المعارضات فيما هذيت من جهلك وضلالتك ، افتتحت قولك بـ : « الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل . . » فهولت وروعت ، وصعدت وصوبت ثم أخلفت ما وعدت وأخدجت ما ولَّدت حين انقطعت ، وعلى ذكر الذَّنَب والمشفر اقتصرت ، ولو كنت تعرف شيئًا من قوانين الكلام وأوضاع المنطق ورسومه لم تحرِّف القول عن جهته ، ولم تضعه فى غير موضعه . أما علمت يا عاجز أن مثل هذه الفاتحة إنما تُجعل مقدمة لأمر عظيم الشأن فائت الوصف متناهى الغاية فى معناه ، كقول الله تعالى : (الحاقَّة ، ما الحاقَّة وما أدراك ما الحاقَّة) و (القارعةُ ما القارعة وما أدراكَ ما القارعة) فذكر يوم القيامة وأتبعها من ذكر أوصافها وعظيم أهوالها ما لاق بالمقدمة التى أسلفها وصدَّر

---

(١) كذا فى (ب) وفى (ا) والطبعة الأولى إلى أى .

الخطبة بها فقال : ﴿ يوم يكونُ الناسُ كالفَراش المبثوث وتكونُ الجبالُ كالعِهن المنفوش . . .﴾ إلى آخر السورة . وأنت علقت هذا القول على دابة يدركها البصر فى مدى[١] اللحظة ويحيط بمعانيها العلم فى اليسير من مدة الفكر ، ثم اقتصرت من عظيم ما فيه[٢] من العجب على ذكر المشفر والذنب . فما أُشَبِّهُ قولك هذا إلا بما أنشدنيه بعض شيوخنا لبعض نظرائك :

وإنى وإنى ثم إنى وإننى إذا انقطعت نعلى جعلت لها شسعا

أىّ صغير ما أتيت به فى عجز كلامك[٣] من عظيم ما أصميته فى صدره ويسير ما رضيت به فى آخره من كثير ما أنميته فى أوله ، وإذ قد دلك[٤] فيالةُ رأيك وسوءُ اختيارك على معارضة القرآن العظيم بذكر الفيل وأوصافه ، فهلا أتيت منها بما هو أشف قيلاً[٥] وأشفى وأجمع لخواص نعوته وأوفى فتذكر ما أُعطِيته هذه البهيمة العجماء من الذهن والفطنة التى بها تفهم عن سائسها ما يومئ به إليها من تدبيره ، وهلا تعجبت وعجبت من ذلك من حسن مواتاتها وطاعتها له إذا أغراها ، وقرب ارتداعها إذا زجرها ونهاها . وهلا فرنت إلى ذكر مشفرها ذكر نابيها اللذين بهما تصول ، وبسنانهما تطعن وتجرح . !![٦] وكيف أغفلت أمر أُذنيها العريضتين اللتين تلحفهما وجهها وتذب بتحريكهما البق والذباب عن[٧] صماخيها وعينيها ، وبهما تروّحُ على نواحى رأسها ،

---

(١) فى (ا) سر.

(٢) هكذا فى الأصل ، وقد نقلها (ا) فيها ، ولعله قصد بذلك عود الضمير على دابة . ويمكن على الأصل أن يعود الضمير على الفيل وهو محور الكلام .

(٣) فى الأصل « كلامه » والسياق يتطلب ما أثبتناه .

(٤) فى الأصل ذلك — وقرأها (ا) كما أثبتناه ، والسياق يقتضى لفظاً بمعنى حملك .

(٥) فى الأصل قليلا ، وقرأها (ا) غليلا .

(٦) سقطت هذه الكلمة فى (ا) .

(٧) هكذا فى الأصل وقد قرأها (ا) على ، والأصل أصح .

وكيف لم تفطن لموضع التدبير من قصر رقبتها واندماج عنقها ، فإنها لو طالت لم تُقِلّ رأسها ، ولأوهنها ثقل حمله . فإذ قد منعت امتداد العنق فقد عوضت به انسدال المشفر ، لتتناول[1] به من وجه الأرض حاجتها من القوت والعلف ، وتَدْلُوَ به شربها من الماء ، وتملأ كالسقَّاءِ فتنضح به أعضاءها إذا شاءت ، ثم قد منعت البروك بأن لم تجعل لها مفاصل لم تقدر على النهوض ، إذ ليس لها عنق تتطاول بها[2] كالبعير الذى يهْنعُ بعنقه وينبعث ويثور ، فيما يشبه هذه الأمور من نعوت خلقها وعجائب تركيبها . ويقال له أرأيت لو عارضك فى قولك سفيه مثلك بالبعوض الذى هو خصم فيلك وَجنَفُه[3] فى مضادة الطباع ، وقد حكاه فى مناظر الخلقة من شخوص الفودين وانخراط الخدين . وانسدال المشفر والصول به . فقال : « البعوض وما البعوض وما أدراك ما البعوض ، له مشفر عضوض ، فى الدماءِ يخوض ، فهو للفيل عروض ! » هل يكون سبيله فيما تعاطاه من السخف إلا سبيلك فيما أتيته من الجهل ؟ . فإن قيل إن البعوض ليس بعروض الفيل لبعد ما بينهما من التفاوت فى الحجم والجثة وما بينهما[4] من الضعف والقوة قيل : مدار الحكم فى باب التشبيه والتمثيل على المعانى دون الأعيان والأجسام ، والبعوض حيوان من أوجه كالفيل ، يكسب القوت ويتوقى المهالك ، ولذلك صار يتوارى نهارًا ويبرز ليلا ، وقد أشبه خلقه الفيل برأسه وبخرطومه ، وبسائر ما ذكرناه من أمره ، ثم قد زاد عليه بجناحين ، فصار موضع نقص الجسم والجثة مجبورًا بهما ، فهما متساويان فى المعانى التى تجمعهما غير مفترقين فيهما .

---

(١) فى (ا) تتناول .

(٢) فى « ب » (فتنوء) زيادة بعد بها .

(٣) غير واضحة فى الأصل .

(٤) فى (ت) وتباينهما .

وأما قول الآخر وما جاء به من نعت للحبلى ، فإن أول ما غلط به هذا الجاهل أنه وضع كلمة الانتقام فى موضع كلمة الإنعام حين قال : « ألم تر إلى [١] ربك كيف فعل بالحبلى » ، وإنما تستعمل هذه اللفظة فى العقوبات ونحوها كقوله : ﴿ ألم تر كيف فعل ربُّكَ بأصحاب الفيل ﴾ ، وكقوله سبحانه : ﴿ ما يفعلُ الله بعذابكم ﴾ وكقوله : ﴿ وتبيَّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾ وكقول القائل : فعل الله بفلان وفعل ، إذا دعا عليه ، وإنما وجهُ الكلام مما رامه من المعنى أن يقول : ألم تر إلى ربك كيف لطف بالحبلى ، وكيف أنعم عليها أو نحواً من هذا الكلام الذى يجرى مجرى الامتنان والإنعام . وأما قوله : أخرج منها نسمة تسعى من بين شراسيف وحشى ، فإنما تعاطى استراقًا من قول الله تعالى : ﴿ خُلِق [٢] من ماء دافق يخرج من بين الصُّلْب والترائب ﴾ ، وهذا فى أول تارات الخلقة التى ذكرها الله سبحانه عز وجل ؛ ثم ذكر فى آية أخرى عدد انتقالاته فى الرحم من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى لحم ، وإنشاء [٣] خلق بعد ذلك آخر ، وهو اجتماع الصورة ونفخ الروح فيها ، فدل بها على عظيم قدرته ولطيف حكمته وسعة رحمته ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وإنما تتصرف به هذه الأحوال بعد الانتقال إلى الرحم ، وبين الرحم والشراسيف مسافة وحجب . قال أصحاب التشريح : الرحم موضوعة بين المثانة والمعى المستقيم ، فلم يدر هذا البائس ما يقول حين جعل الولد بعد الحبل خارجًا من بين الشراسيف والحشى تمثلاً بقوله جل وعز : ﴿ يخرج من بين الصُّلب والترائب ﴾ فغلط فى الوصف .

---

(١) هذه قراءة الأصل وقد جعلها (ا) : ألم تر كيف فعل ربك .

(٢) فى الأصل : « خلق الإنسان » وهو خطأ فى المخطوط وصحة الآية ما أثبتناه .

(٣) على قراءة الأصل ، وحرفها (ا) إلى : وأنشىء خلقاً .

وأخطأ فى المعنى كما أبطل فى الدعوى .

وتلك سبيل مقالات المتكلفين وعاقبة دعاوى المبطلين .

قلت[١] فى إعجاز القرآن وجهًا[٢] آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره فى النفوس ، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ؛ فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته ، ويدخلوا فى دينه ، وصارت عداوتهم موالاة ، وكفرهم إيمانًا .

خرج عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعمد لقتله ، فسار إلى دار أخته وهى تقرأ سورة طه ، فلما وقع فى سمعه لم يلبث أن آمن . وبعث الملأ من قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليواقفوه[٣] على أمور أرسلوه بها ، فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات من حم السجدة ، فلما أقبل عتبة وأبصره الملأ من قريش

---

(١) يلخص السيوطى فى الإتقان ٢ ص ٢٠٥ رأى الخطابى هنا فى هذا الوجه من الإعجاز ويلخصه كذلك صاحب مفتاح السعادة ط حيدر آباد ٢ /٣٦١ .

(٢) أثبتها (ا) وجه .

(٣) أثبتها (ا) « ليوافقه » وليس هذا مراداً هنا .

قالوا : أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فى الموسم على النفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا به وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدين بها ، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن . وقد رُوى عن بعضهم أنه قال : فتحت الأمصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن .

ولما سمعته الجن لم تمالك أن قالت : ﴿ إِنَّا سَمِعنا قُرآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلى الرُّشْد فآمَنَّا به ﴾ (١) . ومصداق ما وصفناه فى أمر القرآن فى قوله تعالى : ﴿ لو أَنزلْنا هذا القرآن على جَبَل لرأيتَه خاشعًا متصدِّعًا مِن خشيةِ الله ﴾ (٢) ، وفى قوله : ﴿ الله نزَّلَ أَحْسَن الحديثِ كِتابًا متشابهًا مَثانِىَ تقْشعِرُّ منه جلودُ الذى يَخْشوْنَ ربَّهم ثُمَّ تلينُ جلودهُم وَقلوبُهم إلى ذِكرِ الله ﴾ (٣) . وقال سبحانه : ﴿ أَوَلم يَكْفِهم أَنَّا أَنزلنا عليك الكِتابَ يُتلَى عليهم ﴾ (٤) . وقال سبحانه : ﴿ وَإِذا تُلِيتْ عليهم آياتُه زادتْهم إيمانًا ﴾ (٥) . وقال سبحانه : ﴿ وإِذا سَمِعوا ما أُنزل إِلى الرَّسولِ تَرَى أَعْيُنهم تفيضُ مِن الدَّمع مِمَّا عَرَفُوا من الحقِّ ﴾ (٦) فى آى ذوات عدد منه ، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد ، وهو من عظيم آياته ، ودلائل معجزاته .

والحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قَيِّمًا ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، غيظ الكافرين ، وحتف الملحدين ، المبعوث بدين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وحسبنا الله ونعم الوكيل

---

(١) [الجن ٧٢/٢٠١] .
(٢) [الحشر ٥٩/٢١] .
(٣) [الزمر ٣٩/٢٣] .
(٤) [العنكبوت ٢٩ / ٥١] .
(٥) [الأنفال ٨/٢] .
(٦) [المائدة ٥/٨٣] .

بسم الله الرحمن الرحيم [1]

صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

قال الشيخ الإمام أبو الحسن على بن عيسى الرمانى سألت وفقك الله عن ذكر النكت فى إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج ، وأنا أجتهد فى بلوغ محبتك ، والله الموفق للصواب بمنه ورحمته ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة ؛ والتحدى للكافة ؛ والصَّرفة ، والبلاغة : والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ؛ ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة .

فأما[2] البلاغة فهى على ثلاث طبقات : منها ما هو فى أعلى طبقة ، ومنها ما هو فى أدنى طبقة ، ومنها ما هو فى الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة . فما كان فى أعلاها [3] طبقة فهو معجز ، وهو بلاغة القرآن . وما كان منها دون ذلك [4] فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس . وليست البلاغة إفهام المعنى ، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيى ؛ ولا البلاغة أيضًا بتحقيق اللفظ على المعنى ، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف . وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى

(١) ت : وبه توفيق . كتاب النكت فى إعجاز القرآن تأليف الشيخ أبى الحسن على بن عيسى النحوى الرمانى رحمه الله رواية القاضى الفقيه أبى الحسن على بن الحسن الخلعى رضى الله عنه . قال رحمه الله . . .

(٢) ترك الجهات الثلاث الأولى والجهات الثلاث الأخيرة ليتكلم عنها باختصار فى آخر الكتاب .

(٣) ت « فى أعلا طبقة » .

(٤) ت معجز « وما كان فيما دون ذلك » .

القلب فى أحسن صورة من اللفظ. فأعلاها طبقة فى الحسن بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة ، وأعلى [١] طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كإعجاز الشعر المفحم ، فهذا معجز للمفحَم خاصة كما أن ذلك معجز للكافة .

والبلاغة على عشرة أقسام : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان ونحن نفسرها بابًا بابًا إن شاء الله تعالى .

باب الإيجاز[١]

الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى ، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة ، فالألفاظ القليلة إيجاز . والإيجاز على وجهين : حذف ، وقَصْر [٣] ، فالحذف إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام . والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف . فمن الحذف ﴿ واسْأَل القَرية ﴾ ، ومنه ﴿ وَلكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقى ﴾ ، ومنه ﴿ براءَةٌ من الله ﴾ ، ومنه ﴿ طاعةٌ وقولٌ معروف ﴾ ، ومنه حذف الأجوبة ، وهو أبلغ من الذكر ، وما جاءَ منه فى القرآن كثير كقوله جل ثناؤه : ﴿ ولو أَنَّ قرآنًا سُيِّرت به الجبالُ أَو قُطِّعتْ به الأَرضُ أَو كلِّم به الموتى ﴾ كأنه قيل : لكان هذا القرآن . ومنه : ﴿ وسِيق الذين اتَّقوْا رَبَّهم إلى الجنةِ زُمَرًا حتى إذا جَاءوها وفُتِحَتْ أبوابُها ﴾ كأنه قيل : حصلوا على النعيم المقيم الذى لا يشوبه

---

(١) يكتبها أحياناً أعلا بالألف وأحياناً أعلى بالياء .
(٢) عناوين الأبواب من التيمورية
(٣) يرجع ابن سنان هذه التسمية إلى الرمانى (سر الفصاحة / ١٩٩) .

التنغيص والتكدير . وإنما صار الحذف فى مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان ، فحذفُ الجواب فى قولك : لو رأيتَ عليًّا بين الصَّفَّين ، أبلغُ من الذكر لما بيَّناه .

وأما الإيجاز بالقصر دون الحذف فهو أغمض من الحذف وإن كان الحذف غامضًا ، للحاجة إلى العلم بالمواضع التى يصلح فيها من المواضع التى لا يصلح[١] . فمن ذلك : ﴿ ولَكُم فى القصاص حياة ﴾[٢] ، ومنه : ﴿ يَحْسَبُون كل صيحة عليهم ﴾[٣] ، ومنه ﴿ وأُخْرَى لمْ تقدرُوا عليها قد أحاط الله بها ﴾[٤] . ومنه : ﴿ إنْ يَتَّبِعون إلاَّ الظَّنَّ وما تهْوَى الأَنْفس ﴾[٥] ، ومنه ﴿ إنَّما بَغْيُكم على أَنْفُسِكم ﴾[٦] ومنه ﴿ ولا يَحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلا بأَهله ﴾[٧]

وهذا الضرب من الإيجاز فى القرآن كثير ، وقد استحسن الناسُ من الإيجاز قولهم : القتلُ أَنفى للقتل ، وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت فى البلاغة والإيجاز ، وذلك يظهر من أربعة أوجه : إنه أكثر فى الفائدة ، وأوجز فى العبارة وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأْليفًا بالحروف المتلائمة . أما الكثرة فى الفائدة فيه ففيه كل ما فى قولهم : القتلْ أَنفى للقتل ، وزيادة معانٍ حسنة ، منها إبانه العدل [٨] لذكره القصاص ، ومنها

---

(١) ت « هذا شرح الحذف » .
(٢) [البقرة ٢ / ١٧٩] .
(٣) [المنافقون ٦٣ / ٤] .
(٤) [الفتح ٤٨ / ٢١] .
(٥) [النجم ٥٣ / ٢٣] .
(٦) [يونس ١٠ / ٢٣] .
(٧) [فاطر ٣٥ / ٤٣] .
(٨) هذه الكلمة غير واضحة فى هذه النسخة ، وهى فى ت العدل .

إبانة الغرض المرغوبِ فيه لذكره الحياة ؛ ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به . وأما الإيجاز فى العبارة فإن الذى هو نظير — القتل أنفى للقتل — قوله ﴿ القصاص حياة ﴾ ، والأول أربعة عشر حرفًا ، والثانى عشرة أحرف وأما بُعده من الكلفة بالتكرير الذى فيه على النفس مشقة فإن فى قولهم : القتل أنفى للقتل تكريرًا غيره أبلغ منه ، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر فى باب البلاغة عن أعلى طبقة ، وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرَك بالحس وموجود فى اللفظ . فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام ، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام ، فباجتماع هذه الأمور التى ذكرناها صار أبلغَ منه وأحسن ، وإن كان الأول بليغًا حسنًا .

وظهور الإعجاز فى الوجوه التى نُبيِّنها[1] يكون باجتماع أمور يظهر بها للنفس أن الكلام من البلاغة فى أعلى طبقة ، وإن كان قد يلتبس فيما قل بما حسن[2] جدًّا لإيجازه ، وحسن رونقه ، وعذوبة لفظه ، وصحة معناه . كقول على — رضى اللهُ عنه[3] : قيمة كل امرىء ما يحسن . فهذا كلام عجيب يُغنى ظهور حسنه عن وصفه . فمِثل هذه الشذرات لا يظهر بها حكم ، فإذا انتظم الكلام حتى يكون كأقصر سورة أو أطول آية ظهر حكم الإعجاز ، كما وقع التحدى فى قوله تعالى ﴿ فأتُوا بسورة من مثله ﴾ ، فبان الإعجاز عند ظهور مقدار السورة من القرآن

والإيجاز بلاغة ، والتقصير عيى ، كما أن الإطناب بلاغة والتطويل عيى ، والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه ، وليس كذلك التقصير ، لأنه لا بد فيه من الإخلال . فأما الإطناب فإنما يكون فى تفصيل المعنى وما يتعلق

---

(١) فى ت « بيناها » .
(٢) ت — به .
(٣) هذه العبارة فى ت « كقول على كرم الله وجهه » .

به فى المواضع التى يحسن فيها ذكر التفصيل ، فإنّ لكل واحد من الإيجاز والإطناب موضعًا يكون به أولى من الآخر ، لأن الحاجة إليه أشد ، والاهتمام به أعظم ، فأما التطويل فعيب وعِىّ ، لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفى منه القليل ، فكان كالسالك طريقًا بعيدًا جهلا منه بالطريق القريب . وأما الإطناب فليس كذلك لأنه كمن سلك طريقًا بعيدًا لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة ، فيحمل فى الطريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب .

والإيجاز على وجهين : أحدهما إظهار النكتة بعد الفهم لشرح الجملة ، والآخر إحضار المعنى بأقل ما يمكن من العبارة . والوجه الأول يكون كثيرًا فى العلوم القياسية ، وذلك أنه إذا فهم شرح الجملة كفى بعد ذلك حفظ النكتة ، لأنها تكون حينئذ دالة ومغنية عن التعلق بها فى نفسها ، لتعلق النكتة بها ، فهذا الضرب من الإيجاز لا يكون إلا بعد أحوال متقررة من الفهم لشرح الجملة فحينئذ تكون النكتة مغنية . وأما الوجه الآخر فمستأنف لم يقرر له حال خاصة يكون جارًا لها من حيث تعلق بها من فهم كيف وجه التعلق فيهما[1] .

والإيجاز على ثلاثة أوجه : الإيجاز بسلوك الطريق الأقرب دون الأبعد ، وإيجاز باعتماد الغرض دون ما تشعب ، وإيجاز بإظهار الفائدة بما يستحسن دون ما يستقبل ، لأن المستقبل ثقيل على النفس ؛ فقد يكون للمعنى طريقان أحدهما أقرب من الآخر[2] كقولك : تحركْ حركة سريعة ـ فى موضع أسْرعْ وقد يكتنف الغرض شعب كثيرة كالتشبيب قبل المديح ، وكالصفات

---

(١) هذه الجملة غامضة قلقة .

(٢) ت أحدهما من الآخر .

لما يعترض الكلام مما ليس عليه الاعتماد ، وإذا ظهرت الفائدة بما يستحسن فهو إيجاز لخفته على النفس .

وإذا عرفت الإيجاز ومراتبه ، وتأملت ما جاء فى القرآن منه ، عرفت فضيلته على سائر الكلام ، وهو علُّوه على غيره من سائر الكلام ، وعلوه على غيره من أنواع البيان ، والإيجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان ، والإيجاز تصفية الألفاظ من الكدر وتخليصُها من الدرن ، والإيجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ.[1] ، والإيجاز إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير ، والإيجاز والإكثار إنما هما فى المعنى الواحد ، وذلك ظاهر فى جملة العدد وتفصيله كقول القائل لى عنده خمسة وثلاثة واثنان فى موضع عشرة[2] وقد يطول الكلام فى البيان عن المعانى المختلفة وهو مع ذلك فى نهاية الإيجاز . وإذا كان الإطناب لا منزلة إلا ويحسن أكثر منها فالإطناب حينئذ إيجاز كصفة ما يستحقه الله تعالى من الشكر على نعمه ، فإطناب فيه إيجاز .

باب التشبيه

التشبيه هو العَقد على أنَّ أحد الشيئين يسد مسد الآخر فى حس أو عقل ولا يخلو التشبيه من أن يكون فى القول أو فى النفس . فأما القول فنحو قولك : زيد شديد كالأسد . فالكاف عقدت المشبه به بالمشبه ، وأما العقد فى النفس فالاعتقاد لمعنى هذا القول . وأما التشبيه الحسى فكماءين وذهبين يقوم أحدهما مقام الآخر ونحوه ، وأما التشبيه النفسى فنحو تشبيه قوة

---

(١) فى الأصل تصفية الكلام ثم شطبت لفظة الكلام ووضع مقابلها فى الهامش كلمة « الألفاظ » . وفى التيمورية الكلام ولكن عودة الضمير عليها مؤنثاً يرجح « الألفاظ » .

(٢) ت فى موضع لى عنده العشرة .

زيد بقوة عمرو ، فالقوة لا تشاهد ولكنها تعلم[١] سادة مسد أخرى فتشبه. والتشبيه على وجهين [٢] : تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما ، وتشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما مشترك بينهما . فالأول كتشبيه الجوهر بالجوهر وتشبيه السواد بالسواد والثانى كتشبيه الشدة بالموت والبيان بالسحر الحلال . والتشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف .

وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء وتظهر فيه بلاغة البلغاء ، وذلك أنه يكسب الكلام بيانًا عجيبًا . وهو على طبقات فى الحسن كما بينا . فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يكسب بيانًا فيهما . والأظهر الذى يقع فيه البيان بالتشبيه به على وجوه : منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة . ومنها إخراج ما لم تجربه عادة إلى ما جرت به عادة ، ومنها إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة ، ومنها إخراج مالا قوة له فى الصفة إلى ماله قوة فى الصفة .فالأول نحو تشبيه المعدوم بالغائب ، والثانى تشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النوم ، والثالث تشبيه إعادة الأجسام بإعادة الكتاب ، والرابع تشبيه ضياء السراج بضياء النهار .

التشبيه على وجهين : تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة . فتشبيه البلاغة كتشبيه أعمال الكفار بالسراب . وتشبيه الحقيقة نحو : هذا الدينار كهذا الدينار فخذ أيهما شئت . ونحن نذكر بعض ما جاء فى القرآن من التشبيه ، وننبه على ما فيه من البيان بحسب الإمكان [٣] . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُوا أعمالُهم كسراب بقيعة يحسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتَّى إذا جاءه

---

(١) ت ولكنه سادة .

(٢) راجع رقم ٣ من ملحق تعليقات المتأخرين .

(٣) ت والله المبين على الصواب .

لم يَجِدْهُ شيئًا) [١] فهذا بيان قد أَخْرَجَ مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه [٢] ، وقد اجتمعا فى بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة ، ولو قيل يحسبه الرائى ماءً ثم يظهر أنه على خلاف ما قَدَّر لكان بليغًا ، وأبلغ منه لفظ القرآن ، لأَن الظمآن أَشد حرصًا عليه وتعلق قلب به ، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذى يصيره إلى عذاب الأَبد فى النار – نعوذ بالله من هذه الحال – وتشبيه أَعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه ، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة ، وصحة الدلالة .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ مَثَلُ الذين كفروا بِربِّهم أَعمالُهم كرماد اشتدتْ به الرِّيحُ فى يوم عاصف لا يقدرون مِمَّا كَسَبوا عَلَى شىء ﴾[٣] فهذا بيان قد أَخْرَج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، فقد اجتمع المشبه والمشبه به فى الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدارك لما فات ، وفى ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة ، ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ واتْلُ عليهِمْ نبأَ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ مِنها ﴾[٤] ثم قال : ﴿ فمَثَلُهُ كمثل الكلب إِنْ تحْملْ عليه يَلْهَثْ أَوْ تتركْهُ يَلْهَث ﴾[٥] فهذا بيان قد أَخرج ما لا تقع عليه الحاسَّة إلى ما تقع عليه ، وقد اجتمعا فى ترك الطاعة على وجه من وجوه التدبير وفى التخسيس ؛ فالكلب لا يطيعك فى ترك اللهث حملت عليه أَو تركته ، وكذلك الكافر لا يطيع بالإيمان على رفق ولا على عُنْف ، وهذا يدل على حكمة الله سبحانه وتعالى فى أَنه لا يمنع اللطف . وقال تعالى : ﴿ والَّذينَ يَدْعُون مِنْ دُونه لا يستجيبون لهُم بشىءٍ إِلاَّ كباسِطِ كَفَّيهِ إِلى المَاءِ ليَبْلُغَ فاهُ وَما هُو

---

(١) [النور ٢٤ / ٣٩] .
(٢) ت الحاسة .
(٣) [إبراهيم ١٤ / ١٨] .
(٤) [الأعراف ٥٧ / ١٧] .
(٥) [الأعراف ٦٧ / ١٧] .

ببالِغه ﴾[١] فهذا بيان قد أُخرج مالا تقع عليه الحاسّة إلى ما تقع عليه ، وقد اجتمعا فى الحاجة إلى نيل المنفعة ، والحسرة بما يفوت من درك الطلبة ، وفى ذلك الزجر عن الدعاءِ إلا لِلّه عز وجل الذى يملك النفع والضر ، ولا يضيع عنده مثقال الذر . وقال عز وجل ﴿ وإِذْ نَتَقْنا الجبَلَ فوقهم كأَنه ظلة ﴾ وهذا بيان قد أَخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به العادة ، وقد اجتمعا فى معنى الارتفاع فى الصورة ، وفيه أَعظم الآية لمن فكر فى مقدورات الله تعالى عند مشاهدته لذلك أَو عمله به ليطلب الفوز من قبله ، ونيل المنافع بطاعته . وقال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ أَنزلناهُ من السماءِ فاخْتَلَطَ به نباتُ الأَرْض ﴾[٢] الآية ، وهذا بيان قد أَخرج ما لم تجر به عادة إلى ماقد جرت به وقد اجتمع[٣] والمشبه به فى الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده ، وفى ذلك العبرة لمن أعتبر ، والموعظة لمن تفكر فى أَن كل فان حقيرٌ وإن طالت مدته ، وصغيرٌ وإن كبر قدره . وقال عز وجل : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنا عليهم ريحًا صَرْصَرًا فى يوم نَحْس مستَمِر . تنْزِعُ النَّاسَ كأَنهم أَعجاز نخل مُنْقعِر ﴾[٤] وهذا بيان قد أَخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعا فى قلع الريح لهما ، وإهلاكها إياهما . وفى ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة . وقال عز وجل : ﴿ فإِذا انشقَّتِ السَّماءُ فكانتْ وردةً كالدِّهان ﴾[٥] فهذا تشبيه قد أَخرج ما لم تجْر به عادةٌ إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعا فى الحمْرة ، وفى لينِ الجواهر السيالة وفى ذلك الدلالةُ على عظيم الشأن ونفوذ السلطان ، لتنصرف الهممُ بالأَمل إلى ما هناك[٦] . وقال عز وجل : ﴿ اعلَموا

---

(١) [الرعد ١٣ / ١٤] .
(٢) [يونس ١٠ / ٢٤] .
(٣) المشبه والمشبه به .
(٤) [القمر ٥٤ / ٢٠] .
(٥) [الرحمن ٥٥ / ٣٧] .
(٦) ت « لتنصرف الهمم إلى ما هناك بالأمل » .

أَنَّمَا الحياةُ الدُّنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثُرٌ فى الأَموالِ والأَولاد كمَثَلِ غيثٍ أَعْجَبَ الكفَّارَ نباته ﴾[١] الآية ، فهذا تشبيه قد أخرج مالم تجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعا فى شدة الإعجاب ثم فى التغيير بالانقلاب ، وفى ذلك الاحتقارُ للدنيا والتحذير من الاغترار بِهَا والسكون إليها . وقال عز وجل : ﴿ وجنةٍ عرضُها كعرْض السَّماءِ والأَرض ﴾[٢] فهذا تشبيه قد أخرج مالا يُعلم بالبديهة إلى ما يُعلم ، وفى ذلك البيانُ العجيبُ بما قد تقرر فى النفس من الأُمور ، والتشويقُ إلى الجنةِ بحسن الصفة مع مالها من السعة ، وقد اجتمعا فى العظم ، وقال عز وجل ﴿ مَثَلُ الَّذِين حُمِّلُوا التوارةَ ثُمَّ لم يحْمِلُوها كمثل الحمار يحْمِلُ أَسْفارًا ﴾[٣] ، وهذا تشبيه قد أَخْرَج مالا يُعلم بالبديهة إلى ما يُعلم بالبديهة ، وقد اجتمعا فى الجهل بما حَمَلا ، وفى ذلك العيبُ لطريقةِ مَنْ ضيَّع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية . وقال عز وجل : ﴿ كَأَنَّهم أَعجازُ نخلٍ خاويةٍ ﴾[٤] وهذا تشبيه قد أَخرج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم ، وقد اجتمعا فى خلو الأَجساد من الأَرواح ، وفى ذلك الاحتقارُ لكل شىء يؤول به الأَمر إلى ذلك المآل . وقال عزوجل : ﴿ مثلُ الذين اتَّخَذُوا من دون الله أَوْلِيَاءَ كَمَثَل العَنْكبُوت ﴾[٥] الآية . فهذا تشبيه قد أَخرج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة وقد اجتمعا فى ضعف المُعتَمَد ، ووهاء المُسْتَنَد ، وفى ذلك التحذيرُ من حملِ النفس على الغرور بالعمل على غير يقين ، مع الشعور بما فيه التوهين .

وقال عز وجل : ﴿ وله الجَوار المنشَآتُ فى البَحْرِ كالأَعلام ﴾[٦] فهذا

---

(١) [الحديد ٥٧/٢٠] .
(٢) [الحديد ٥٧/٢١] .
(٣) [الجمعة ٦٢/٥] .
(٤) [الحاقة ٦٩/٧] .
(٥) [العنكبوت ٢٩/٤١] .
(٦) [الرحمن ٥٥/٢٤] .

تشبيه قد أخرج مالا قوةَ له فى الصِّفة إلى ماله قوة فيها ، وقد اجتمعا فى العظم ، إلا أن الجبال أعظم . وفى ذلك العبرةُ من جِهة القدرةِ فيما سخَّر من الفُلْكِ الجارية مع عظمها ، وما فى ذلك من الانتفاع بها ، وقطع الأقطار البعيدة فيها. وقال عز وجل : ﴿ خَلَقَ الإِنسانَ من صَلْصال كالفَخَّار ﴾ (١). وهذا تشبيه قد أخرج مالا قوة له فى الصفة إلى ماله القوةُ وقد اجتمعا فى الرخاوة والجفاف ، وإن كان أحدهما بالنار والآخر بالريح . وقال عز وجل : ﴿ أَجعلْتُم سِقَايَةَ الحاجّ وعِمَارةَ المَسْجدِ الحرَامِ كمنْ آمنَ باالله ﴾(٢) .(وفى هذا إنكار لأن تجعل حرمة السقاية والعمارة كحرمة من آمن وكحرمة الجهاد) (٣) وهو بيان عجيب ، وقد كشفه التشبيه بالإيمان الباطل والقياس الفاسد، وفى ذلك الدلالةُ على تعظيم حال المؤمن بالإيمان ، وأنه لايُساوَى به مخلوق على صفته فى القياس . ومثله ﴿ أَمْ حَسِب الذين اجترحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُم كالَّذِين آمنوا وعمِلُوا الصَّالحات ﴾(٤) .

باب الاستعارة

الاستعارةُ تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة . والفرق بين الاستعارة والتشبيه أنَّ ـ ما كان من التشبيه ـ(٥) بأداة التشبيه فى الكلام فهو على أصله ، لم يغير عنه فى الاستعمال ، وليس كذلك

---

(١) [الرحمن ٥٥/١٤] . (٢) [التوبة ٩/١٩] .

(٣) هذه العبارة فى الأصل مضطربة وهى هكذا : « فهذا إنكار لأن تجعل حرمة الجهاد كحرمة من آمن بالله » ونرى أن الصحيح ما أثبتناه . وقد أوردها ابن أبى الإصبع كما يلى : وهذا إنكار على من جعل حرمة الجهاد كحرمة من آمن بالله واليوم الآخر (بدائع القرآن . نسخة دار الكتب . ورقة ١٩ ب) .

(٤) [الجاثية ٢٥ / ٢١] . (٥) هذه الزيادة من الهامش .

الاستعارة ، لأن مخرج الاستعارة مخرجُ ما العبارة [ليست][1] له فى أصل اللغة .

وكل استعارة فلابد فيها من أشياءَ : مستعار ومستعار له، ومستعار منه . فاللفظ المستعار قد نقل عن أصل إلى فرع للبيان . وكل استعارة بليغة فهى جمعٌ بين شيئين بمعنى مشترك بينهما يكسب بيان أحدهما بالآخر كالتشبيه ، إلا أنه بنقل الكلمة والتشبيه بأداته الدالة عليه فى اللغة . وكل استعارة حسنة فهى توجب بيان لا تنوب منابه الحقيقة ، وذلك أنه لو كان تقوم مقامه الحقيقة ، كانت أولى به ، ولم تَجُزْ الاستعارة . وكل استعارة فلابد لها من حقيقة ، وهى أصل الدلالة على المعنى فى اللغة كقول امرئ القيس فى صفة الفرس : « قيد الأوابد » والحقيقة فيه : مانع الأوابد ، وقيد الأوابد أبلغ وأحسن . وكقولك : ميزان القياس ، حقيقته تعديل القياس ، والاستعارة فيه أبلغ وأحسن . فكل استعارة لابد لها من حقيقة . ولا بد من بيان لايفهم بالحقيقة . ونحن نذكر ما جاء فى القرآن من الاستعارة على جهة البلاغة ، قال الله عز وجل : ﴿ وقَدِمْنَا إلى ما عَمِلُوا من عَمَلٍ فجعلنَاهُ هباءً منْثُورًا ﴾[2] . حقيقة قدِمنا هنا عمدْنَا وقدِمنا أبلغُ منه لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر، لأنه [عاملهم][3] من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ، ثم قَدِم فرآهم على خلاف ما أمرهم . وفى هذا تحذيرٌ من الاغترار بالإمهال ، والمعنى الذى يجمعهما العدل ، لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل ، والقدوم أبلغ لما بيَّنا . وأما هباء منثورًا فبيان قد أخرج مالا تقع عليه الحاسة

---

(١) أضفنا كلمة (ليست) لتستقيم العبارة ويصح المراد ، ونصها فى « سر الفصاحة » (ص ١١١) « وليس كذلك الاستعارة لأن مخرج الاستعارة مخرج ما ليست العبارة له فى أصل اللغة . (وراجع رقم ٤ فى ملحق تعليقات المتأخرين) .

(٢) [الفرقان ٢٥ / ٢٣] .

(٣) زيدت هذه الكلمة ليستقيم السياق .

إلى ما تقع عليه حاسة . وقال عز وجل : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَر ﴾[١] . حقيقته فَبَلِّغْ ما تؤمر به ، والاستعارة أبلغ من الحقيقة ، لأن الصدع بالأمر لابد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة ، والتبليغُ قد يصعب حتى لايكونَ له تأثير فيصير بمنزله ما لم يقع . والمعنى الذى يجمعهما الإيصال ، إلا أن الإيصال الذى له تأثير كصدع الزجاجة أبلغ . وقال عز وجل : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الماءُ حَمَلْنَاكُم فِى الجَارِية ﴾ [٢] . حقيقته عَلاَ والاستعارةُ أبلغ لأن طغى عَلاَ قاهرًا ، وهو مبالغة فى عظم الحال . وقال عز وجل : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتية ﴾ [٣] . حقيقته شديدة ، والْعُتُوّ أَبْلغُ منه لأَنَّ العتوّ شدة فيها تمرد . وقال تعالى : ﴿ سَمِعُوا لها شهيقاً وهى تفورُ تكَادُ تمَيَّزُ من الْغَيْظِ ﴾ [٤] ، شهيقاً حقيقته صوتًا فظيعًا كشهيق الباكى ، والاستعارة أبلغ منه وأوجز ، والمعنى الجامع بينهما قبح الصوت . ﴿ تَمَيَّزُ من الغيظ ﴾ حقيقته : من شدة الغليان بالانقاد ، والاستعارة أبلغ منه ،لأن مقدار شدة الغيظ على النفس محسوس ، مدرك [مدى]ما يدعو إليه من شدة الانتقام، فقد اجتمع شدة فى النفس تدعو إلى شدة انتقام فى الفعل، وفى ذاك أعظم الزجر وأكبر الوعظ ،وأدل دليل على سعة القدرة وموقع الحكمة. ومنه : ﴿ إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لها تَغَيُّظًا وزَفيرًا ﴾[٥] أى تَسْتَقْبلُهُم [للإيقاع بهم استقبال مغتاظ يزفِرُ غيظًا عليهم . وقال تعالى : ﴿ وإِنَّه فى أُمِّ الكتابِ لَدَيْنَا ﴾[٦]. وحقيقته أصل الكتاب ، وهو أبلغ لأن الأم أجمع وأظهر فيما يُرَدُّ إليه مما ينشأ عنه ، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عن موسى الغَضَبُ ﴾[٧]. وحقيقته انتفاءُ الغضب ، والاستعارة أبلغ لأنه انتفى انتفاء مُراصدٍ بالعودة ، فهو كالسكوت على مراصدة

---

(١) [الحجر ١٥ / ٩٤] .
(٢) [الحاقة ٦٩/١١] .
(٣) [الحاقة ٦٩ / ٦] .
(٤) [الملك ٦٧ / ٨] .
(٥) [الفرقان ٢٥ / ١٢] .
(٦) [الزخرف ٤٣/٤] .
(٧) [الأعراف ٧/١٥٢] .

الكلام بِما تُوجبه الحكمة فى الحال ، فانتفى الغضب بالسكوت عما يكره ، والمعنى الجامع بينهما الإمساك عما يكره . وقال تعالى : ﴿ ذَرنى ومن خلقتُ وحيدًا ﴾[١] . ذرنى ها هنا مستعار ، وحقيقته : ذر عقابى ومن خلقت وحيدًا بترك مسألتى فيه ، إلا أنه أخرج لتفخيم الوعيد مخرج ذرنى وإياه لأنه أبلغ ، وإن كان الله تعالى لايجوز عليه المنع ، وإنما صار أبلغ لأنه لامنزلة من العقاب إلا وما يقدر الله تعالى عليه منها أعظم . وهذا أعظم ما يكون من الزجر . وقال تعالى : ﴿ سنفرُغُ لكُم أيُّها الثَّقَلان ﴾[٢] والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، ولكن هذا أبلغ فى الوعيد ، وحقيقته سنعمد ، إلا أنه لما كان الذى يعمِد إلى شىء قد يُقَصِّر فيه لشغله بغيره معه ، وكان الفارغ له هو البالغ فى الغالب مما يجرى به التعارف ، دلَّنا بذلك على المبالغة من الجهة التى هى أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ، ليقع الزجر بالمبالغة التى هى أعرف عند العامة والخاصة موقعَ الحكمة . وقال تعالى : ﴿ فمحوْنا آيةَ اللَّيْل وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَار مُبْصِرَةً ﴾[٣] . فمبصرة ها هنا استعارة ، وحقيقتها مضيئة ، وهى أبلغ من مضيئة ، لأنه أدل على موقع النعمة ، لأنه يكشف عن وجه المنفعة . قيل : هو بمعنى ذات إبصار وعلى هذا يكون حقيقة . وقال تعالى : ﴿ واشْتَعَل الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[٤] . أصل الاشتعال للنار وهو فى هذا الموضع أبلغ . وحقيقته كثرة شيب الرأس ، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايدًا سريعًا صارت فى الانتشار والإسراع كاشتعال النار .. وله موقع فى البلاغة عجيب ، وذلك أنه انتشر فى الرأس انتشارًا لا يُتلافى كاشتعال النار . وقال تعالى : ﴿ بل نقْذِفُ بالحَقِّ على الباطِلِ فيدْمَغُهُ فإذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[٥] . فالقذف

---

(١) [المدثر ٧٤ / ١١] . (٢) [الرحمن ٥٥ / ٣١] . (٣) [الإسراء ١٧ / ١٢]
(٤) [مريم ١٩/ ٤] . (٥) [الأنبياء ٢١ / ٣٨] .

والدمغ هنا مستعار وهو أبلغ ، وحقيقته : بل نورد الحق على الباطل فيُذْهبه، وإنما كانت الاستعارة أبلغ لأن فى القذف دليلا على القهر، لأنَّك إذا قلت : قذف به إليه فإنما معناه ألقاه إليه على جهة الإكراه والقهر ، فالحق يلقى على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار لا على جهة الشك والارتياب ، ويَدمغه أبلغ من يُذهبه لما فى يدمغه من التأثير فيه فهو أظهر فى النكاية وأعلى فى تأثير القوة .

وقال تعالى : ﴿ عذابُ يومٍ عقيمٍ ﴾[1] وعقيم ها هنا مستعار وحقيقته ها هنا مُبير ، والاستعارة أبلغ لأنه قد دل على أن ذلك اليوم لاخير بعده للمعذبين ، فقيل : يوم عقيم ، أى لا ينتج خيراً ، ومعنى الهلاك فيهما إلا أن أحد الهلاكين أعظم . وقال تعالى : ﴿ وآية لهُم اللَّيل نسلَخُ منه النهارَ فإذا هُم مظْلِمون ﴾[2] نسلخ مستعار ، وحقيقته : يخرج منه النهار . والاستعارة أبلغ لأن السلخ إخراج الشىء مما لابسه وعسر انتزاعه منه لالتحامه به ، فكذلك قياس الليل . وقال تعالى ﴿ فأَنْشَرْنا بِه بَلْدةً ميتًا ﴾[3] النشر ها هنا مستعار ، وحقيقته : أظهَرْنا به النبات والأشجار والثمار فكانت كمن أحييناه بعد إماتته ، فكأنه قيل : أحيينا به بلدة ميتاً من قولك : أنشر الله الموتى فنشروا . وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة لتضمنها من المبالغة ما ليس فى أظْهَرْنا ، والإظهار فى الإحياء والإنبات إلا أنه فى الإحياء أبلغ . وقال تعالى : ﴿ وَتَوَدُّون أَنَّ غيرَ ذاتِ الشَّوْكةِ تكُونُ لكُمْ ﴾[4] اللفظ ها هنا بالشوكة مستعار ، وهو أبلغ ، وحقيقته السلاح ، فذكر الحد الذى به تقع المخافة واعتمد على الإيماء إلى النكتة ، وإذا كان السلاح يشتمل على

---

(١) [الحج ٢٢/٥٥] .
(٢) [يس ٣٧ / ٣٦] .
(٣) [الزخرف ٤٣ / ١١] .
(٤) [الأنفال ٨/٧] .

ما له حد وما ليس له حد ، فشوكة السلاح هى التى تبقى . وقال تعالى : ﴿ وإذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيض ﴾[١] عريض ها هنا مستعار ، وحقيقته كبير، والاستعارة فيه أبلغ لأنه أظهر بوقوع الحاسة عليه ، وليس كذلك كل كثرة . وقيل : عريض لأن العرض أدل على الطول . وقال تعالى : ﴿ حتى تضع الحربُ أَوْزارها ﴾[٢] وهذا مستعار ، وحقيقته : حتى يضع أهل الحرب أثقالها ، فجعل وضع أهلها الأثقال وضعاً لها على جهة التفخيم لشأنها وقال تعالى : ﴿ والصُّبْحِ إِذَا تنفَّس ﴾[٣] وتنفس ها هنا مستعار ، وحقيقته إذا بدأ انتشاره ، وتنفس أبلغ منه ، ومعنى الابتداء فيهما ، إلا أنه فى التنفس أبلغ لما فيه من الترويح عن النفس ، وقال تعالى : ﴿ فأَذَاقَها الله لِبَاسَ الجُوعِ والخوْفِ ﴾[٤] وهذا مستعار ، وحقيقته أجاعها الله وأخافها والاستعارة أبلغ ، لدلالتها على استمرار ذلك بهم كاستمرار لباس الجلد وما أشبهه . وإنما قيل ذاقوه لأنه كما يجد الذائق مرارة الشىء فهم فى الاستمرار كتلك الشدة فى المذاقة ، وقال تعالى ﴿ مسَّتهُم البأْساءُ والضَّرّاءُ وزُلْزِلُوا ﴾[٥] وهذا مستعار ، وزلزلوا أبلغ من كل لفظ كان يعبر به عن غلظ ما نالهم . ومعنى حركة الإزعاج فيهما ، إلا أن الزلزلة أبلغ وأشد . وقال تعالى : ﴿ رَبَّنا أَفْرِغْ علينا صَبْراً ﴾[٦] . أفرغ مستعار وحقيقته افعل بنا صبراً ، وأفرغ أبلغ منه لأن فى الإفراغ اتساعاً مع بيان ، وقال عز وجل : ﴿ ضُرِبَتْ عليْهِمُ الذِّلة أينما ثُقِفُوا إلاَّ بحَبْلٍ من الله وَحَبْلٍ مِن النَّاسِ ﴾[٧] حقيقته حصلت عليهم الذلة . والاستعارة أبلغ لما فيه من الدلالة على تثبيت ما حصل

---

(١) [فصلت ٤١ / ٥١] .
(٢) [محمد ٤٧ / ٤] .
(٣) [التكوير ٨١/١٨) .
(٤) [النحل ١٦/١٢] .
(٥) [البقرة ٢ /٢١٤) .
(٦) [البقرة ٢/٢٥٠] .
(٧) [آل عمران ٣ /١١٢] .

عليهم من الذلة كما يثبت الشئ بالضرب لأن التمكين به محسوس ، والضرب مع ذلك ينبئ عن الإذلال والنقص[١] ، وفى ذلك شدة الزجر لهم والتنفير من حالهم ، وقال تعالى : ﴿ فَنَبَذُوه وَرَاءَ ظُهُورِهِم ﴾ حقيقته تعرضوا للغفلة عنه ، والاستعارة أبلغ لما فيه من الإحالة على ما يتصور . وقال تعالى : ﴿ ربَّنا أَنْزِل علينا مائِدةً مِن السَّمَاءِ تكونُ لنا عِيدًا ﴾[٢] حقيقته تكون لنا ذات سرور ، والاستعارة أبلغ لما للإحالة فيه على ما قد جرت العادة بمقدار السرور به . وقال تعالى : ﴿ وإذا رَأَيْتَ الَّذين يخُوضون فى آياتِنا ﴾[٣] كل خوض ذمه الله تعالى فى القرآن فلفظه مستعار من خوض الماء ، وحقيقته : يذكرون آياتنا ، والاستعارة أبلغ لإخراجه إلى ما تقع عليه المشاهدة من الملابسة ، لأنه لاتظهر ملابسة المعانى لهم كما تظهر ملابسة الماء لهم . وقال تعالى : ﴿ فدلَّاهُما بغُرُورٍ ﴾[٤] وحقيقته صيرهما إلى الخطيئة بغرور ، والاستعارة أبلغ لإخراجه إلى ما يحس من التدلى من علو إلى سُفل . وقال تعالى : ﴿ لايَزَالُ بُنْيانُهم الَّذِى بَنَوْا رِيبةً فى قُلُوبهم ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿ أَفمنْ أسس بنيَانه على تَقْوى من الله ورضوانٍ ﴾[٦] الآية . كل هذا مستعار ، وأصل البنيان إنما هو للحيطان وما أشبهها ، وحقيقته اعتقادهم الذى عملوا عليه ، والاستعارة أبلغ لما فيها من البيان بما يحس ويتصور ، وجعل البنيان ريبة وإنما هو ذو ريبة ، والاستعارة أبلغ ، كما تقول : هو خبث كله ، وذلك

---

(١) هذا التعليل محل النظر فمثل هذا الأسلوب تستعمله العرب أحياناً حيث لا يلحظ الإذلال ولا النقص كقول الشاعر :

إن السماحة والمروءة والندى ... فى قبة ضربت على ابن الحشرج

(٢) [المائدة ٥/١١٤] .
(٣) [الأنعام ٦ / ٦٨] .
(٤) [الأعراف ٧ / ٢٢] .
(٥) [التوبة ٩/١١٠] .
(٦) [التوبة ٩/١٩٠] .

أبلغ من أن يجعله ممتزجًا ، لأن قوة الذم للريبة ، فجاء على البلاغة لا على الحذف الذى إنما يراد به الإيجاز فى العبارة فقط. . وقال تعالى : ﴿ الذين يصُدُّون عن سَبيل اللهِ ويبغُونَها عِوَجًا ﴾[١] العوج ها هنا مستعار ، وحقيقته خطأ والاستعارة أبلغ لما فيه من البيان بالإحاطة على ما يقع عليه الإحساس من العدول عن الاستقامة بالاعوجاج . وقال عز وجل : ﴿ لَوْ أَنَّ لى بِكُمْ قُوَّةً أو آوِى إلى رُكْن شدِيدٍ ﴾[٢] أصل الأركان للبنيان ، ثم كثر واستعير حتى صار الأعوان أركانًا للمُعان ، والحجج أركانًا للإسلام ، وحقيقته إلى مُعين شديد . الاستعارة أبلغ لأن الركن يحس ، والمعين لا يحس من حيث هو معين . قال تعالى : ﴿ أتاهَا أمرُنا ليلاً أو نَهارًا فَجَعَلْناها حَصيدًا كأَنْ لمْ تغْنَ بالأَمسِ ﴾[٣] أصل الحصيد للنبات ، حقيقته مهلكة ، والاستعارة أبلغ لما فيه من الإحالة على إدراك البصر . وقال عز وجل ﴿ الر ، كتابٌ أنزلناهُ إليك لتُخْرِجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النُّور ﴾[٤] . كل ما جاء فى القرآن من ذكر من الظلمات إلى النور فهو مستعار ، وحقيقته من الجهل إلى العلم ، والاستعارة أبلغ لما فيه من البيان بالإخراج إلى ما يدرك بالأبصار . وقال تعالى : ﴿ حصيدًا خامِدِين ﴾[٥] أصل الخمود للنار وحقيقته هادئين ، والاستعارة أبلغ لأن خمود النار أقوى فى الدلالة على الهلاك ، على حد قولهم : طُفِئَ فُلانٌ كما يُطفأُ السِّراج . وقال عز وجل : ﴿ ألم تَر أنَّهم فى كُلِّ وادٍ يَهِيمُون ﴾[٦] واد هنا مستعار ، وكذلك الهَيَمان ، وهو من أحسن البيان ، وحقيقته يخلطون فيما يقولون ، لأنهم ليسوا على قصد لطريق الحق ، والاستعارة أبلغ

---

(١) [الأعراف ٧/ ٤٥] .
(٢) [هود ١١/ ٨٠] .
(٣) [يونس ١٠ / ٢٤] .
(٤) [إبراهيم ١٤ / ١] .
(٥) [الأنبياء ٢١ / ١٥] .
(٦) [الشعراء ٢٦ / ٢٢٥] .

لما فيه من البيان بالإخراج إلى ما يقع عليه الإدراك من تخليط الإنسان بالهيمان فى كل واد يعن له فيه الذهاب . وقال تعالى : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾(١) السراج ها هنا مستعار وحقيقته مبينًا ، والاستعارة أبلغ للإحالة على ما يظهر بالحاسة . وقال عز وجل : ﴿ يا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنا من مَرْقَدِنا ﴾(٢) أصل الرقاد النوم وحقيقته من مهلكنا ، والاستعارة أبلغ لأن النوم أظهر من الموت ، والاستيقاظ أظهر من الإحياء بعد الموت ، لأن الإنسان الواحد يتكرر عليه النوم واليقظة ، وليس كذلك الموت والحياة . وقال تعالى : ﴿ وتَرَكْنَا بعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يمُوجُ فى بعْض ﴾(٣) أصل الموج للماء وحقيقته تخليط بعضهم ببعض ، والاستعارة أبلغ ، لأن قوة الماء فى الاختلاط أعظم . وقال تعالى : ﴿ وفى عاد إِذْ أَرسلْنا عليهِم الرِّيحَ العَقيم ﴾(٤) العقيم مستعار للريح ، وحقيقته ريح لا يأتى بها سحاب غيث ، والاستعارة أبلغ لأن حال العقيم أظهر من حال الريح التى لا تأتى بمطر ، لأن مالا يقع من أجل حال منافية أوكد مما يقع من غير حال منافية وأظهر . وقال عز وجل : ﴿ ولا تَجْعَلْ يدَكَ مغلولةً إِلى عُنُقِكَ ولا تبسُطْهَا كُلَّ البسْطِ ﴾(٥) ، حقيقته لا تمنع نائلك كل المنع ، والاستعارة أبلغ لأنه جعل منع النائل بمنزلة غل اليد إلى العنق ، وذلك مما يحسن حالُ التشبيه فيه بالمنع فيهما إلا أن حال المغلول اليد أظهر وأقوى فيما يكره . وقال تعالى : ﴿ ولَنُذِيقَنَّهم من العذَاب الأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ ﴾(٦) حقيقته لنعذبنَّهم ، والاستعارة أبلغ ، لأن إحساس الذائق أقوى لأنه طالب لإدراك ما يذوقه ، ولأنه جعل بدل إحساس

---

(١) [الأحزاب ٣٣/٤٦] .
(٢) [يس ٣٦ / ٥٢٣] .
(٣) [الكهف ١٨ /٩٩] .
(٤) [الذاريات ٥١ / ٤١] .
(٥) [الإسراء ١٧ / ٢٩] .
(٦) [السجدة ٢١/ ٣٢] .

الطعام المستلذ إحساس الآلام ، لأن الأسبق فى الذوق ذوق الطعام . وقال تعالى : ﴿ فَضربْنَا عَلَى آذانهم فى الكَهفِ سِنِينَ عدَدَا ﴾[١] حقيقته منعناهم الإحساس بآذانهم من غير صمم ، والاستعارة أبلغ لأنه كالضرب على الكتاب فلا يقرأ ، كذلك المنع من الإحساس فلا يُحسُّ ، وإنما دل على عدم الإحساس بالضرب على الآذان دون الضرب على الأبصار ، لأنه أدل على المراد من حيث كان قد يضرب على الأبصار من غير عمى فلا يبطل الإدراك رأسًا ، وذلك بتغميض الأجفان ، وليس كذلك منع الإسماع من غير صمم فى الآذان ، لأنه إذا ضرب عليها من غير صمم دل على عدم الإحساس من كل جارحة يصح بها الإدراك ، ولأن الأذن لما كانت طريقًا إلى الانتباه ثم ضُربوا عليها لم يكن سبيل إليه . وقال عز وجل : ﴿ ثُم نُكِسُوا على رُؤوسِهم ﴾[٢] هذا استعارة ، حقيقته أطرقوا للمذلة عند لزوم الحجة ، إلا أنه بولغ فى العبارة بجعلهم كالواقع على رأسه للحيرة بما نزل به من الآبدة . وقال تعالى : ﴿ ولما سُقطَ فى أيْدِيهم ﴾[٣] هذا مستعار وحقيقته : ندموا لما رأوا من أسباب الندم ، إلا أن الاستعارة أبلغ للإحالة فيه على الإحساس لما يوجب الندم بما سقط فى اليد ، فكانت حاله أكشف فى سوء الاختيار لما يوجب من الوبال .

باب التلاؤم

التلاؤم نقيض التنافر ، والتلاؤم تعديل الحروف فى التأليف ، والتأليف على ثلاثة أوجه[٤] :

---

(١) [الكهف ١١/١٨] .
(٢) [الأنبياء ٢١ / ٦٥] .
(٣) [الأعراف ١٤٩/٧] .
(٤) راجع رقم ٥ فى ملحق تعليقات المتأخرين .

متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا .

فالتأليف المتنافر كقول الشاعر :

وقبرُ حرْب بمكان قَفْـرُ وليسَ قُربَ قَبْرِ حربٍ قبرُ[1]

وذكروا أَن هذا من أَشعار الجن لأَنه لا يتهيأ لأَحد أَن ينشده ثلاث مرات فلا يتَتَعْتَعُ ، وإِنما السبب فى ذلك ما ذكرنا من تنافر الحروف .

وأَما التأليف المتلائم فى الطبقة الوسطى – وهو من أَحسنها – فكقول الشاعر :

رَمتْنِى وسِتْرُ الله بينى وبينَها عَشِيَّةَ آرام الكِنَاس رميمُ
(رميمُ التى قالَت لجيرانِ بيْتِها ضَمِنْتُ لكم أَلاَّ يزالَ يهيمُ)[2]
أَلا رُبَّ يومٍ لو رمتْنِى رَمَيْتُها ولكنَّ عهْدِى بالنِّضَالِ قديمُ[3]

والمتلائم فى الطبقة العليا القرآنُ كله ، وذلك بيِّن لمن تـأَمله . والفرق بينه وبين غيره من الكلام فى تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم فى الطبقة الوسطى[4] . وبعض الناس أَشد إِحساسًا بذلك وفطنة له من بعض ، كما أَن بعضهم أَشد إِحساساً بتمييز الموزون فى الشعر من المكسور ، واختلاف

---

(١) رواه الجاحظ فى البيان والتبيين ط السندوبى ١/٤٧ ويذكره الباقلانى مستشهداً على المتنافر لما فعل الرمانى (إعجاز القرآن ط خفاجى ٢٨٥) .

(٢) هذا البيت زيادة من البيان والتبيين (١/٨٢ . السندوبى) ويذكره فى المؤتلف .

(٣) هذه الأبيات الثلاثة لأبى حية النميرى الشاعر الأموى المجيد ، من شعراء الحماسة . وترو فى الحماسة (شرح الحماسة للتبريزى ط . محيى الدين ٣/٢٦٩) :

رمتنى وستر الله بينى وبينها ونحن بأكناف الحجاز رميم
فلو أنها لما رمتنى رميتُها ولكن عهدى بالنضال قديم

ويرويها المبرد (/١٩١) الكامل . ط . مصر ١٣٥٥ هـ كما رواها الرمانى .

(٤) فى الأصل (. . . بين المتلائم والمتنافر فى الطبقة الوسطى » والصواب من سر الفصاحة (ص ٩١) .

الناس فى ذلك من جهة الطباع كاختلافهم فى الصور والأخلاق . والسبب فى التلاؤم تعديل الحروف فى التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤمًا . وأما التنافر فالسبب فيه ماذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد [1] وذلك أنه إذا بَعُد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزله مشى المقيد ، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك فى الاعتدال ، ولذلك وقع فى الكلام الإدغام والإبدال .

والفائدة فى التلاؤم حسن الكلام فى السمع ، وسهولته فى اللفظ ، وتقبل المعنى له فى النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة . ومَثَلُ ذلك مثلُ قراءة الكتاب فى أحسن ما يكون من الخط والحروف ، وقراءته فى أقبح ما يكون من الحرف والخط ، فذلك متفاوت فى الصورة وإن كانت المعانى واحدة .

ومخارج الحروف مختلفة ، فمنها ما هو من أقصى الحلق ، ومنها ما هو من أدنى الفم ، ومنها ما هو فى الوسائط بين ذلك .

والتلاؤم فى التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد . وذلك يظهر بسهولته على اللسان ، وحسنه فى الأسماع ، وتقبله فى الطباع ، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان فى صحة البرهان فى أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام ، كما يظهر له أعلى طبقات الشعر من أناها إذا تفاوت ما بينهما . وقد عم التحدى به للجميع لرفع الإشكال ، وجاء على

---

(١) يناقش ابن سنان هذا الرأى (سر الفصاحة ٩٤) وسيجىء نص مناقشته فى الباب الأخير من هذا الكتاب .

جهة الإخبار بأنه لا تقع المعارضة لأجل الإعجاز ، فقال عز وجل : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا فأْتُوا بِسُورَةٍ منْ مِثْله وادْعُوا شُهَدَاءَكُم من دُونِ الله إِنْ كُنْتُم صَادقين ﴾[١] . ثم قال : ﴿ فإِنْ لَمْ تفعَلُوا وَلَنْ تفْعَلُوا ﴾ فقطع بأنهم لن يفعلوا . وقال تعالى : ﴿ قُلْ لئن اجْتمعَتِ الإِنسُ والجنُّ على أَنْ يأْتُوا بمثلِ هذا القُرآن لا يأْتُونَ بمثلهِ ﴾[٢] . وقال : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحديثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صَادقين ﴾[٣] . ولما تعللوا بالعلم والمعانى[٤] التى فيه قال : ﴿ فأْتُوا بعشر سُوَرٍ مِثْلِه مُفْتريات ﴾[٥] . فقد قامت الحجة على العربى : والعجمى بعجز الجميع عن المعارضة إذ بذلك تبين المعجزة .

باب الفواصل

الفواصل حروف متشاكلة فى المقاطع توجب حسن إفهام المعانى . والفواصل بلاغة ، والأسجاع عجيب[٦] ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الأسجاع فالمعانى تابعة لها . وهو قلب ما توجبه الحكمة فى الدلالة ، إذ كان الغرض الذى هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعانى التى الحاجة إليها ماسة ، فإذا كانت المشاكلة وصلة إليه فهو بلاغة ، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولُكنة ، لأنه تكلف من غير الوجه الذى توجبه الحكمة ، ومَثَلُه مثل من رَصَّع تاجًا ثم أَلْبسه زنجياً ساقطًا ، أو نظم قلادة در ثم أَلْبسها كلبًا . وقبح ذلك وعيبه بَيِّنٌ لمن له أدنى فهم ، فمن ذلك ما يحكى عن بعض الكهان : « والأَرض والسماء ، والغراب الواقعة بنقعاء ، لقد نفر المجد إلى العُشَراء » .

---

(١) [البقرة ٢/٢٣] . (٢) [الإسراء ١٧/٨٨] . (٣) [الطور ٥٢/٣٤] .

(٤) شرح عبد القاهر هذه الفكرة فى رسالة (الشافية) المذكورة بعد ص ١٣٨ و ١٩٩ .

(٥) [هود ١١ / ١٣] . (٦) راجع رقم ٦ فى ملحق التعليقات .

ومنه ما يحكى عن مسيلمة الكذاب : « يا ضفدع نق كم تنقين ، لا الماء تكدرين ولا النهر تفارقين » .

فهذا أغث كلام يكون وأسخفه ، وقد بيَّنا علته ، وهو تكلف المعانى من أجله[1] ، وجعلها تابعة له من غير أن يبالى المتكلم بها ما كانت .

وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ، لأنها طريق إلى إفهام المعانى التى يحتاج إليها فى أحسن صورة يدل بها عليها ، وإنما أخذ السجع فى الكلام من سجع الحمامة ، وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة ، كما ليس فى سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة ، إذ كان المعنى لما تُكُلِّفَ من غير وجه الحاجة إليه والفائدة فيه لم يعتد به ، فصار بمنزلة ما ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة .

والفواصل على وجهين : أحدهما على الحروف المتجانسة والاخر على الحروف المتقاربة [2] ، فالحروف المتجانسة كقوله تعالى : ﴿ طه ما أنزلْنا عليك القرآن لتشقى إلاَّ تذكِرَةً لمن يخْشَى ﴾[3] . الآيات . وكقوله : ﴿ والطورِ وكتابٍ مسْطُورٍ ﴾ . . الآيات ، وأما الحروف المتقاربة فكالميم من النون ، كقوله تعالى : ﴿ الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ﴾ ، وكالدال مع الباء نحو : ﴿ ق ، والقرآن المجيد ﴾ ثم قال : ﴿ هذا شيءٌ عجيب ﴾ وإنما حسن فى الفواصل الحروف المتقاربة لأنه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد فى تمييز الفواصل والمقاطع ، لما فيه من البلاغة وحسن العبارة . وأما القوافى فلا تحتمل ذلك لأنها ليست فى الطبقة العليا من البلاغة وإنما حسَّن الكلام فيها إقامةُ

---

(١) أى من أجل السجع .

(٢) ذكر ابن سنان الوجهين على أنهما تماثل وتقارب أو حروف متماثلة ومتقاربة وناقش رأى الرمانى فيها وسيجىء بعد (سر الفصاحة ١٦٣ ، ١٦٤ وما بعدها) (٣) [طه ٢٠/١] .

الوزن ومجانسة القوافى ، فلو بطل أحد الشيئين[١] خرج عن ذلك المنهاج . وبطل ذلك الحسن الذى له فى الأسماع ، ونقصت رتبته فى الأفهام . والفائدة فى الفواصل دلالتها على المقاطع ، وتحسينها الكلام بالتشاكل وإبداؤها فى الآى بالنظائر .

باب التجانس

تجانس البلاغة هو بيان بأنواع الكلام الذى يجمعه أصل واحد فى اللغة . والتجانس على وجهين ؛ مزاوجة ومناسبة[٢] ، فالمزاوجة تقع فى الجزاء[٣] كقوله تعالى : ﴿ فمن اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فاعْتَدُوا عليهِ ﴾[٤] أى جازُوه بما يستحق على طريق العدل ، إلا أنه استعير للثانى لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة فى المقدار ، فجاء على مزاوجة الكلام لحسن البيان . ومن ذلك ﴿ مُسْتَهْزِئُون ، اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ ، أى يجازيهم على استهزائهم ، ومنه : (ومكرُوا ومكَرَ اللهُ واللهُ خيرُ الماكِرين)[٥] أى جازاهم على مكرهم . فاستعير للجزاء على المكر اسم المكر لتحقيق الدلالة على أنَّ وبال المكر راجع عليهم ومختص بهم . ومنه ﴿ يُخَادِعُون اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾[٦] أى مجازيهم على خديعتهم ، ووبال الخديعة راجع عليهم . والعرب تقول : الجزاء بالجزاء ، والأول ليس بجزاء ، وإنما هو على مزاوجة الكلام .

---

(١) هذه اللفظة فى الأصل يمكن أن تقرأ : البيتين .
(٢) راجع رقم ٧ فى ملحق تعليقات المتأخرين .
(٣) ذكر المبرد هذا النوع فى « ما اختلف لفظه » وسماه المزج (ص ١٣ — ١٤) .
(٤) [البقرة ٢ /١٤] .
(٥) [آل عمران ٣/٥٤] .
(٦) [النساء ٤ / ١٤٢] .

قال عمرو بن كلثوم :

أَلا لا يجْهَلَنْ أَحَـدٌ علينَا فنجْهَلَ فوق جهْلِ الجَاهِلِينَا(١)

فهذا حسن فى البلاغة ، ولكنه دون بلاغة القرآن لأَنه لا يؤذن بالعدل كما آذنت بلاغة القرآن ، وإنما فيه الإيذان براجع الوبال فقط ، والاستعارة للثانى أَولى من الاستعارة للأَول لأَن الثانى يحتذى فيه على مثال الأَول فى الاستحقاق ، فالأَول بمنزلة الأَصل والثانى بمنزلة الفرع الذى يحتذى فيه على الأَصل ، فلذلك نقصت منزلة قولهم : الجزاء بالجزاء ، عن الاستعارة بمزاوجة الكلام فى القرآن .

الثانى من المجانس وهو المناسبة ، وهى تدور فى فنون المعانى التى ترجع إلى أَصل واحد . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثم انصرفُوا صرفَ الله قلوبَهمْ ﴾(٢) فجونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير ، والأَصل فيه واحد وهو الذهاب عن الشىء ، أَما هم فذهبوا عن الذكر ، وأَما قلوبهم فذهب عنها الخير . ومنه : ﴿ يَخافُونَ يوماً تَتَقَلَّبُ فِيه القُلُوب والأَبْصَارُ ﴾(٣) فجونس بالقلوب التقلب ، والأَصل واحد ، فالقلوب تتقلبُ بالخواطر ، والأَبصار تتقلب فى المناظر ، والأَصل التصرف . ومنه . ﴿ يَمْحقُ الله الربا ويُربِى الصَّدَقات ﴾(٤) فجونس بإرباء الصدقة ربا الجاهلية ، والأَصل واحد وهو الزيادة إلا أَنه جعل بدل تلك الزيادة المذمومة زيادة محمودة .

---

(١) قال المبرد : لم يمدح بأنه جاهل ، إنما قصد المكافأة والشرف فى قوله :

فوق جهل الجاهلينا

(ما اتفق لفظه واختلف معناه . السلفية ١٣٥٠ ص ١٤) .

(٢) [التوبة ٩/١٢٧] .

(٣) [النور ٢٤/٣٧] .

(٤) [البقرة ٢ / ٢٧٦] .

باب التصريف

التصريف تصريف المعنى فى[1] المعانى المختلفة ، كتصريفه فى الدلالات المختلفة ، وهو عقدها به على جهة التعاقب ، فتصريف المعنى فى المعانى كتصريف الأَصل فى الاشتقاق فى المعانى المختلفة ، وهو عقدها به على جهة المعاقبة ، كتصريف الملك فى معانى الصفات ؛ فصُرِّف فى معنى مالك ، وملك ، ذى الملكوت ، والمليك ، وفى معنى التمليك ، والتمالك ، والإملاك . والتملك ، والمملوك .

كذلك تصريف معنى العرض فى الأَعراض ، والاعتراض ، والاستعراض ، وبالتعرض ، والتعريض والمعارضة والعرض والعروض . وكله منعقد بمعنى الظهور . ومنه : أَعرضت اليمامة أَى ظهرت وهو الأَصل ، ومنه أَيضًا الإعراض عن الإنسان لأَنه انزواءٌ عن الظهور له ، ومنه الاعتراض وهو ظهور ما يصد عن الذهاب ، ومنه الاستعراض للجارية لأَنه طَلَبٌ لظهورها للحاسة ، ومنه التعريض للأَمر لأَنه طَلَبٌ لظهوره بالفعل ، ومنه التعريض للنفع لأَنه يصير على السبب الذى به يقع ظهور النفع ، ومنه المعارضة لأَنها مقابلة يقع منها ظهور المساواة ، أو المخالفة ، ومنه المعْرِض لأَن ظهور الشىء به أَبين ، ومنه العرض لأَنه على ظهور شىء لا يلبث ، ومنه العَرُوض لأَنه ميزان الشعر ، يظهر به المنكسر من المتزن . وهذا الضرب من التصريف فيه بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعانى التى تظهره وتدل عليه . أَما تصريف المعنى فى الدلالات المختلفة فقد جاء فى القرآن فى غير قصة ، منها قصة موسى

---

(١) راجع رقم ٨ فى التعليقات .

عليه السلام ، ذكرت فى سورة الأعراف وفى طه والشعراء . . وغيرها لوجوه من الحكمة ، منها التصرف فى البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة ، ومنها تمكين العبرة والموعظة ، ومنها حل الشبهة فى المعجزة ، وذلك أن الأشياء على وجهين : منها مالا يدخل تحت الممكن فيه معارضة ، ومنها ما يدخل تحت الممكن ، فالأول كالتحدى بعدد يضرب فى عدد فيكون منه خمسة وعشرون غير خمسة فى خمسة وكذلك التحدى فى قسمة المقادير أنه لا يخلو مقداران من أن يكون أحدهما أزيد من الآخر أو أنقص أو مساويًا . فإذا قال قائل : هاتوا مثل هذه القسمة فى غير المقادير قلنا لا يلزم ذلك لأنه لايدخل تحت المكن . وكذلك سبيل الجذور ، ولو قال جذر مائة عشرة فهاتوا لها جَذْرًا غير العشرة . وليس كذلك سبيل أعلى الطبقات فى البلاغة لأن الذى قدر على أن يأتى بسورة آل عمران والذى قدر على المائدة هو الذى قدر على الأنعام ، وهو الله عز وجل الذى يقدر أن يأتى بما شاء من مثل القرآن فظهور الحجاج على الكفار بأن أتى فى المعنى الواحد بالدلالات المختلفة فيما هو من البلاغة فى أعلى طبقة .

باب التضمين

تضمين الكلام هو حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم أو صفة هى عبارة عنه . والتضمين على وجهين : أحدهما ما كان يدل عليه الكلام دلالة الإخبار ، والآخر ما يدل عليه دلالة القياس .

فالأول كذكرك الشىء بأنه مُحدَث ، فهذا يدل على المحدِث دلالة الإخبار ، والتضمين فى الصفتين جميعًا ، إلا أنه على الوجه الذى بَيَّنَّا .

وكذلك سبيل المكسور ومنكسر ، وساقط ، ومسقط .

والتضمين على وجهين ، تضمين توجبه البنية ، وتضمين يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح إلا به ، ومن حيث جرت العادة بأن يعقد به . فأما الذى توجبه نفس البنية ، فالصفة بمعلوم يوجب أنه لابد من عالم ، وكذلك مكرم . وأما الذى يوجبه معنى العبارة من حيث لا تصح إلا به ، فكالصفة بقاتل يدل على مقتول من حيث لا يصح معه معنى قاتل ، ولا مقتول[1] ، فهو على دلالة التضمين .

وأما التضمين الذى يوجبه معنى العبارة من جهة جريان العادة فكقولهم : « الكُرُّ بِستين[2] » المعنى فيه بستين ديناراً ، فهذا مما حذف وضمن الكلامُ معناه لجريان العادة به . والتضمين كله إيجاز استغنى به عن التفصيل إذ كان مما يدل دلالة الإخبار فى كلام الناس ، فأما التضمين الذى يدل عليه دلالة القياس فهو إيجاز فى كلام الله عز وجل خاصة ، لأنه تعالى لا يذهب عليه من وجوه الدلالة ، فنصْبه لها يوجب أن يكون قد دل عليها من كل وجه يصح أن يدل عليه . وليس كذلك سبيل غيره من المتكلمين بتلك العبارة ، لأنه قد تذهب إليه دلالتها من جهة القياس ولا يخرجه ذلك عن أن يكون قد قصد بها الإبانة عما وضعت له فى اللغة من غير أن يلحقه فساد فى العبارة . وكل آية فلا تخلو من تضمين لم يذكر باسم أو صفة ، فمن ذلك : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ » قد تضمن التعليم لاستفتاح الأمور على التبرك به والتعظيم لله بذكره ، وأنه أدب من آداب الدين وشعار للمسلمين ، وأنه إقرار بالعبودية واعتراف بالنعمة التى هى من أجل نعمة ، وأنه ملجأ الخائف :

---

(١) أى والحال أنه لا مقتول .

(٢) الكر بالضم مكيال للعراق وستة أوقار حمار وهو ستون قفيزاً أو أربعون إردباً .

ومعتمد للمستنجع . وقد بيّنّا ذلك بعد انقضاء كل آية فى كتاب « الجامع لعلم القرآن »[١] .

باب المبالغة

المبالغة هى الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة . والمبالغة على وجوه منها المبالغة فى الصفة المعدولة عن الجارية بمعنى[٢] المبالغة ، وذلك على أبنية كثيرة منها : فعلان ، ومنها فعال ، وفعول ، ومفعل ، ومفعال . ففعلان كرحمان عدل عن راحم للمبالغة ، ولا يجوز أن يوصف به إلا الله عز وجل لأنه يدل على معنى لايكون إلا له ، وهو معنى وسعت رحمته كل شىء . ومن ذلك فعال كقوله عز وجل : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب ﴾ معدول عن غافر للمبالغة ، وكذلك تَوَّاب ، وعلام . ومنه فعول كغفور وشكور ، وودود ، ومنه فعيل كقدير ، ورحيم ، وعليم . ومنه مِفعل كمدعس ، ومطعن ، ومفعال كمنحار ، ومطعام .

الضرب الثانى المبالغة بالصيغة العامة فى موضع الخاصة ، كقوله تعالى : ﴿ خالف كلِّ شىءٍ ﴾[٣] وكقول القائل : أتانِى النَّاسُ ، ولعله لا يكون أتاه (إلا) خمسة فاستكثرهم ، وبالغ فى العبارة عنهم .

الضرب الثالث : إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة كقول القائل : جاءَ الملِكُ[٤] إذا جاءَ جيشٌ عظيم له ، ومنه قوله

---

(١) لعل الإشارة هنا إلى كتابة « الجامع الكبير » فى التفسير .

(٢) يورد الباقلانى تعريف المبالغة على أنها الدلالة على كثرة المعنى [إعجاز القرآن ص ٢٨٨ ط. خفاجى] .

(٣) [الأنعام ٦ / ١٠٢] .

(٤) فى الهامش كلمة «نفسه» تجاه هذا السطر ، وترد العباره فى التيمورية جاء الملك بنفسه . وقد آثرنا العبارة كما وردت فى المتن من غير التأكيد لأنه لا يستقيم مع معنى المجاز فى العبارة .

عز وجل : ﴿ وجاءَ ربك والْمَلَكُ صَفًّا صفًّا ﴾[١] فجعل مجيء دلائل الآيات مجيئاً له على المبالغة فى الكلام . ومنه : ﴿ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِن القَوَاعِدِ ﴾[٢] أى أتاهم بعظيم بأسه فجعل ذلك إتياناً له على المبالغة . منه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى ربُّه لِلْجَبَل جَعَلَهُ دكًّا ﴾[٣] .

الضرب الرابع : إخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة ، نحو قوله تعالى : ﴿ ولا يدخُلُونَ الجنَّة حتَّى يَلِجَ الجَملُ فى سَمِّ الخِيَاطِ ﴾[٤] .

الضرب الخامس : إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة فى العدل والمظاهرة فى الحجاج ، فمن ذلك : ﴿ وإنَّا أَوْ إيَّاكُمْ لعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبين ﴾[٥] . ومنه : ﴿ قُلْ إنْ كَان لِلرَّحْمٰن وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العَابدِين ﴾[٦] وعلى هذا النحو خرج مخرج قوله تعالى : ﴿ أَصحَابُ الجَنَّةِ يومئذٍ خيرٌ مستقرًّا ﴾[٧] جاء على التسليم أن لهم مستقرًّا خيراً من جهة السلامة من الآلام ، لأنهم ينكرون إعادة الأرواح إلى الأجسام فقيل على هذا أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا . ومنه : ﴿ وهُوَ الَّذِى يَبدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يعيدُه وهو أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ على التسليم أن أحدهما أهون من الآخر فيما يسبق إلى نفوس العقلاء .

الضرب السادس : حذف الأجوبة للمبالغة كقوله تعالى : ﴿ ولوْ ترَى إذْ وُقِفُوا عَلَى النَّار ﴾[٨] و﴿ ولوْ يَرَى الَّذين ظَلَمُوا إذ يَرَوْن العَذابَ ﴾[٩] ومنه : ﴿ ص ، والقرْآن ذى الذكر ﴾[١٠] كأنه قيل : لجاء الحقُّ أو لعَظُمَ

---

(١) [الفجر ٨٩/٢٢] .
(٢) [النحل ١٦ / ٢٦] .
(٣) [الأعراف ٧٦/١٤٣] .
(٤) [الأعراف ٧ / ٤٠] .
(٥) [سبأ ٣٤/ ٢٤] .
(٦) [الزخرف ٤٣ / ٨١] .
(٧) [الفرقان ٢٥] .
(٨) [الأنعام ٦/٢٧] .
(٩) [البقرة ٢ / ١٦٥] .
(١٠) [ص ٣٨ / ١] .

الأمرُ أو لجاء بالصدقِ . كل ذلك يذهب إليه الوهم لما فيه من التفخيم . والحذف أبلغ من الذكر ، لأن الذكر يقتصر على وجه والحذف يذهب فيه الوهم إلى كل وجه من وجوه التعظيم لما قد تضمنه من التفخيم .

باب البيان

البيان هو الإحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره فى الإدراك .

والبيان على أربعة أقسام[1] : كلام ، وحال ، وإشارة ، وعلامة . والكلام على وجهين : كلامٌ يظهر به تميز الشيء من غيره فهو بيان ، وكلام لا يظهر به تميز الشيء فليس ببيان كالكلام المخلط والمحال الذى لا يفهم به معنى . وليس كل بيان يفهم به المراد فهو حسن من قبل أنه قد يكون على عى وفساد ، كقول السوادى وقد سئل عن أتان معه فقيل له : ما تصنع بها ؟ ، فقال : أُحْبلها وتولد لى . فهذا كلام قبيح فاسد ، وإن قد فهم به المراد وأبان عن معنى الجواب . وكذلك ما يحكى عن باقل ، والعرب تضرب به المثل فى العى فتقول : أعيى من باقل ، وأبين من سحبان وائل ، فبلغ من عيه أنه سُئل عن ظبية كانت معه بكم اشتراها ، فأراد أن يقول بأحد عشر ، فأخرج لسانه وفرج عشر أصابعه فأفلتت الظبية من يده . فهذا وإن كان قد أكد للإفهام ، فهو أبعد الناس من حسن البيان . وليس بحسن أن يطلق اسم بيان على ما قبح من الكلام ، لأن الله قد مدح البيان واعتد به فى أياديه الجسام ، فقال : ﴿ الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ولكن إذا قيد بما يدل على أنه يعنى به إفهام المراد جاز .

---

(١) سبق الجاحظ الرمانى إلى تعريف البيان وقرر أن جميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لاتنقص ولا تزيد : أولها اللفظ ، ثم الإشارة ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التى تسمى نصبة ، والنصبة هى الحال الدالة التى تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن مدى تلك الدلالات . (البيان والتبيين ط . هارون جـ١ / ٧٥ — ٧٦) .

وحسن البيان فى الكلام على مراتب : فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن فى العبارة من تعديل النظم حتى يحسن فى السمع ويسهل على اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد ، وحتى يأتى على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة .

والبيان فى الكلام لا يخلو من أن يكون باسم أو صفة أو تأليف من غير اسم للمعنى أو صفة ، كقولك : غلام زيد ، فهذا التأليف يدل على الملك من غير ذكر له باسم أو صفة ، ودلالة الاشتقاق كدلالة التأليف فى أنه من غير ذكر اسم أو صفة ، كقولك : قاتل تدل على مقتول وقتل من غير ذكر اسم أو صفة لواحد منها ، ولكن المعنى مضمن بالصفة المشتقة وإن لم تكن له . ودلالة الأسماء والصفات متناهية ، فأما دلالة التأليف فليس لها نهاية ، ولهذا صار التحدى فيها بالمعارضة لتظهر المعجزة ، ولو قال قائل ، قد انتهى تأليف الشعر حتى لا يمكن أحداً أن يأتى بقصيدة إلا وقد قيلت فيما قيل لكان ذلك باطلا ، لأن دلالة التأليف ليس لها نهاية كما أن الممكن من العدد ليس له نهاية يوقف عندها لايمكن أن يزاد عليها . والقرآن كله فى نهاية حسن البيان ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وعُيُونٍ وزُرُوعٍ ومقام كريم ﴾[1] ، فهذا بيان عجيب يوجب التحذير من الاغترار بالإمهال . وقال سبحانه : ﴿ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾[2] ، وقال ﴿ إِنَّ المتَّقينَ فى مَقَامٍ أمينٍ ﴾[3] فهذا من أحسن الوعد والوعيد . وقال : ﴿وضرب لَنا مَثَلاً ونَسىَ خَلْقَه قَالَ مَنْ يُحْيى العظَامَ وهىَ رَميمٌ قُلْ يُحْيِيها الَّذى أَنشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وهو بكلِّ خَلْقٍ عليمٌ ﴾[4] فهذا أبلغ ما يكون من

---

(١) [الدخان ٤٤/٢٦] .
(٢) [الدخان ٤٤ / ٤٠] .
(٣) [الدخان ٤٤ / ٥١] .
(٤) [يس ٣٦ / ٧٦٩] .